رجع

وحيث انتهينا إلى هذا المقدار من الخروج عن أصل الترجمة فلنثن العنان إلى ما ألممنا به أولا مع ذكر سبتة أعادها الله فنقول:

إنَّ بعض الفقهاء يذكر فى شأن سبتة حديثا عن رسول الله ﷺ قد اختلف الناس فى أمره وقد حدث به الفقيه أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن يحيى السراج، عن جده العلامة أبى زكريا السراج، قال أخبرنا أبو البركات محمّد بن إبراهيم قال: أخبرنا إبراهيم بن أحمد الغافقى، حدثنا محمّد بن عبد الله بن أحمد الأزدى، حدثنا محمّد بن حسن بن عطية، هو ابن غازى، حدثنا أبو الفضل عياض، حدثنا أحمد بن قاسم أبو العباس الصنهاجى، شيخ لا بأس به أنبأنا أبو على بن خالد، وأبو عبد الله محمّد بن عيسى قالا حدثنا عبد الله محمّد بن على بن الشيخ، حدثنا وهب بن مسرة، عن محمّد بن وضاح، عن سحنون، عن أبى القاسم، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر قال:

«مدينة بالمغرب سمعت رسول الله ﷺ يقول إنها على مجمع بحرى المغرب وهى مدينة بناها سبت بن سام بن نوح عليه السلام واشتق لها اسما من اسمه فهى سبتة ودعا لها بالبركة والنصر فلا يريد أحد بها سوءا إلاّ رد الله دائرة السوء عليه».

هكذا ذكره الشيخ الإمام الحافظ سيدى أبو عبد الله محمّد ابن الشيخ العالم الربانى، سيدى الحسن بن مخلوف التلمسانى - رحمه الله - فى شرحه للشفاء، ورواه عن شيخه أبى عبد الله السراج المذكور، بالسند المذكور، وقال إثره: تردد رأى القاضى عياض فى هذا الحديث ففى الغنية: «أنا براء من

عهدة هذا الحديث». وفيه: «هذا حديث موضوع. وابن الشيخ لا يتهم ولا أدرى من أين دخل عليه هذا». وفى المدارك: «هو حديث رواه ابن الشيخ عن وهب بن مسرة يرفعه إلى مالك عن نافع عن ابن عمر:

أنَّ فى أقصى المغرب على ساحل من سواحل البحر مدينة تسمى سبتة أسسها رجل صالح اسمه سبت واشتق لها اسما من اسمه ودعا لها بالنصر والظفر فما رامها أحد بسوء إلاّ رد الله بأسه عليه».

وذكر أشياء على من رامها بسوء ثم قال: وهكذا كله يصدق هذا الحديث. انتهى.

وكانت سبتة مطمح همم ملوك العدوتين، وقد كان للناصر المروانى صاحب الأندلس عناية واهتم بدخولها فى إيالته، حتى حصل له ذلك، ومنها مَلَكَ المغرب حسبما هو مذكور فى أخباره، وكان تملكه إياها سنة تسع عشرة وثلاث مائة، وبها اشتد سلطانه وملك البحر بعدوتيه، وصار المجاز فى يده، وتوطدت طاعته بأرض المغرب، وكان أول من سما إلى ذلك من أملاك الأندلس، منذ سكنها الإسلام، فاستظهر بها على أمره، وخلفها ميراثا لمن بعده من ولاة الأندلس، وأكرم وجوه أهل سبتة الذين جنحوا إلى طاعته، ورفع منازلهم، وقضى حوائجهم، ووصلهم، وخلع عليهم وعلى قاضيهم حسين بن فتح.

والناصر أوّل من تسمى بأمير المؤمنين من بنى أمية بالأندلس، لأن الدولة عظمت فى أيامه حين اختل نظام ملك العباسيين بالمشرق، وتغلبت عليه الأعاجم، ولم يتسم أحد من سلفه بالأندلس إلاّ بالأمير، وكان ملكه بالأندلس فى غاية ما يكون من الضخامة ورفعة الشأن، وهادته الروم، وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر، ولم تبق أمة سمعت به

من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم، إلاّ وجرت إليه، أو وفدت خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية. وقد سرد الإمام ابن حيان من ذلك فى تاريخه الكبير ما هو معلوم، وذكر هو وغيره أنَّ صاحب مدينة القسطنطينية العظمى هاداه، ورغب فى موادعته.

وكان وصول أرسال صاحب القسطنطينية عظيم الروم قسطنطين بن ليون فى شهر صفر سنة ثمان وثلاثين[1] وثلاث مئة، وتأهب الناصر لورودهم، وأمر أن يتلقوا أعظم تلق وأفخمه، وأحسن قبول وأكرمه، وأخرج إلى لقائهم ببجانة يحيى بن محمّد بن الليث وغيره، لخدمة أسباب الطريق، فلما صاروا بأقرب المحلات من قرطبة، خرج إلى لقائهم القواد فى العدد والعدة والتعبية، فتلقوهم قائدا بعد قائد، وكمل اختصاصهم بعد ذلك بأن أخرج إليهم الفتيين الكبيرين الخصيين: ياسرا وتماما، إبلاغا فى الاحتفاء بهم فلقياهم بعد القواد، فاستبان لهم بخروج الفتيين إليهم بسط الناصر وإكرامه، وأنزلوا بمنية ولى العهد الحكم، المنسوبة إلى نصر بعدوة قرطبة فى الربض، ومنعوا وحموا من لقاء الخاصة والعامة، وملابسة الناس جملة، ورتب لحجابتهم رجال تخيروا من الموالى ووجه الحشم، فصيروا على باب قصر هذه المنية ستّة عشر رجلاً لأربع دول، لكل دولة أربعة منهم، ورحل الناصر لدين الله من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة، لدخول وفود الروم عليه، فقعد لهم يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، فى بهو المجلس الزاهر، قعوداً حسنا نبيلا، فقعد عن يمينه من بنيه، ولى العهد الحكم، ثم عبد الله، ثم عبد العزيز أبو الأصبغ، ثم مروان، وقعد عن يساره المنذر، ثم عبد الجبار، ثم سليمان، وتخلف عبد الملك لأنه كان عليلا لم يطق الحضور

(١) نفح الطيب ١/ ٣٦٤.

وحضر الوزراء على مراتبهم يمينا وشمالا، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالى والوكلاء وغيرهم، وقد بسط صحن الدار أجمع بعتاق البسط وكرائم الدرانك، وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفيع الستور، فوصل [رسل][1] ملك الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك، وفخامة السلطان، ودفعوا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية، وهو فى رق مصبوغ لونا سماويا، ومكتوب بالذهب بالخط الإغريقى، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة أيضًا، مكتوب بفضة بخط إغريقى أيضًا، فيها وصف هديته التى أرسل بها وعددها، وعلى الكتاب طابع ذهب، وزنه أربعة مثاقيل، على الوجه الواحد منه صورة المسيح، وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده. وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش، عليه غطاء ذهب، فيه صورة قسطنطين الملك، معمولة من الزجاج الملون البديع وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج، وكان فى ترجمة عنوان الكتاب فى سطر منه[2]:

«قسطنطين ورومانس المؤمنان بالمسيح، الملكان العظيمان، ملكا الروم».

وفى سطر آخر:

«العظيم الاستحقاق للفخر، الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس، أطال الله تعالى بقاءه».

وفى خمس بقين منه نقل هؤلاء الرسل من منزلهم بمنية نصير بالربض، إلى دار إبراهيم الفتى، بداخل قرطبة.

---

(١) التكملة من نفح الطيب.

(٢) نفح الطيب ١/ ٣٦٨.

وفى آخر هذا الشهر أعاد الناصر لدين الله القعود الثانى لرسل ملك الروم، بقصر الزهراء، فاحتفل لذلك أيضًا، واستكمل له الأهبة، وبالغ فى الزينة، وقعد على باب السدة صاحب المدينة، مع من ضم إليه من العرفاء والشرط والحرس، وهم صفوف قيام، وقام مع سور القصر سماط من الموالى، فى الملابس الحسان والسلاح الشاك، وألزم الفصلان كلها جملا من العبيد والحشم والبوابين وغيرهم فى أشكل زينهم.

ثم أعاد القعود لهم بالزهراء، وهذا القعود الثالث كان يوم الخميس لثلاث بقين منه، على ما تقدم فى الأهبة والاحتفال فى الزينة.

وفى النصف من جمادى الأولى منها أدخل الناصر لدين الله هؤلاء الرسل على نفسه، فى مجلس خاص، قعد لهم فيه بقصر الزهراء، فى المجلس المشرف على الرياض، فلما خرجوا من عنده أدخلوا فى ديار الصناعات والعدة بأكناف الزهراء، ودار السكة، وطيف بهم بأرجائها، ثم صرفوا إلى دار نزولهم، فاتصل مقامهم بقرطبة فى كرامة موصولة، وعطايا متوالية، إلى أن كملت الهدية التى كوفئ بها الطاغية مرسلهم، وأُسلمت إليهم، مع أجوبتهم، وأمروا بالرحيل.

وجلس لهم الناصر لدين الله فى النصف من شوال من السنة بعدها، فدخلوا للوداع، وجددت لهم الخلع، وانطلقوا لسبيلهم، متعجبين مما رأوه من عز الإسلام.

وفى سنة سبع وعشرين وثلاث مئة لثمان خلون من شهر جمادى الأولى، وردت على الناصر لدين الله هدية وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد العظيمة الشأن، التى اشتهر ذكرها إلى الآن، ووقع الإجماع على أنه لم يُهَادَ أحد من ملوك الأندلس بمثلها، فأعجب الناصر وأهل مملكته جميعا،

وأقروا أن نفسا لم تسمح بإخراج مثلها ضربة عن يدها، وكتب مع هديته هذه رسالة حسنة، بالاعتراف للناصر لدين الله بالنعمة، والشكر عليها، واستحسنها الناس وكتبوها. وزاد الناصر وزيره هذا حظوة واختصاصا، وأسمى منزلته على سائر الوزراء جميعا فأضعف له رزق الوزارة، وبلّغه ثمانين دينارا فى الشهر وبلغ مصروفه إلى ألف دينار فى السنة، وثنى له العظمة، لتثنيته له الرزق فسماه ذا الوزارتين لذلك، وكان أوّل من سمى بذلك بالأندلس امتثالا لاسم صاعد بن مخلد الوزير، وزير بنى العباس ببغداد، وأمر بتصدير فراشه فى البيت، وتقديم اسمه فى زمام الارتزاق فى أوّل التسمية، فعظم مقداره فى الدولة جدا.

وتفسير هديته هذه على ما ثبت فى كتابه للناصر: وذلك من المال العين خمس مائة ألف دينار، ومن العود المرتفع أربع مائة رطل، منها فى قطعة واحد مائة وثمانون رطلا، ومن المسك الذكى المفضل فى جنسه مائتا أوقية واثنتا عشرة أوقية، ومن العنبر الأشهب الذى بقى على خلقته ولم تدخله صناعة مائة أوقية، منها قطعة عجيبة الشكل أربعون أوقية، ومن الكافور المرتفع النقى الذكى ثلاث مئة أوقية، ومن أنواع الثياب ثلاثون شقة، وبقج خاصية للباسه، بيضا وملونة، وخمس ظهائر شُعَيْبِيَّة[1]، خاصية له، وعشرة فراء من عالى الفنك، منها سبعة بيض خراسانية، وثلاثة ملونة، وستّة مطارف عراقية خاصية له، وثمان وأربعون ملحفة زهرية لكسوته، ومائة ملحفة زهرية لرقاده، وعشرة قناطير شد فيها مائة جلد سمور، وأربعة آلاف رطل من الحرير المغزول، وألف رطل من لون الحرير، قبض جميع ذلك صاحب الطراز، وثلاثون بساطا من صوف مختلفة الصناعات، طول كل بساط منها عشرون ذراعا، ومائة مصلى من وجوه الفراش المختلفة الصناعات، من جنس البسط، وخمسة عشر نخا من عمل الخز المقطوع

(١) نوع من الأقمشة.

شطرها، وسائرها من جنس البسط الوجوه، ومن السلاح والعدة مائة تجفاف، بأبدع الصناعات، وأغربها وأكملها، وألف تُرْس سلطانية، ومائة ألف سهم، ومن الخيل مائة فرس، منها من الخيل العراب المتخيرة لركابة خمسة عشر فرسا، وخمسة من عرض هذه الخيل مسرجة ملجمة، لمراكب الخلافة، مجالس سروجها خز عراقى، وثمانون فرسا مما يصلح للوصفاء والحشم، وخمسة أبغل عالية الركاب، وأربعون وصيفا، وعشرون جارية من متخير الرقيق، بكسوتهم وجميع آلاتهم.

وفى الكتاب: كان قد أمرنى أيده الله بابتياعهم من المال الأخماس قبل، فابتعتهم من نعمته عندى، وصيرتهم من بيتى، ومع ذلك عشرة قناطير سكر طبرزذ، لاَ سُحَاق فيه.

وفى آخر الكتاب: ولما علمت تطوع مولاى - أيده الله تعالى - إلى قرية كذا بالقنبانية المنقطعة الغرس فى شرفها، وترداده - أيده الله تعالى - لذكرها لم أهنأ بعيش حتى أعملت الحيلة فى ابتياعها بأحوازها وأكتبت وكيله ابن بقية الوثيقة فيها باسمه، وضمها إلى ضياعه، وكذلك صنعت فى قرية شيرة من نظر الجيان، عندما اتصل بى من وصفه لها، وتطلعه إليها، فما زلت أتصدى لمسرته بها، حتى ابتعتها الآن بأحوازها، وجميع منازلها وربوعها، واحتاز ذلك كله الوكيلة ابن بقية، وصار فى يده له أبقاه الله سبحانه، وأرجو أنه سيرفع فيها فى هذه السنة آلاف أمداد من الأطعمة إن شاء الله تعالى.

ولما علمت نافذ عزمه - أبقاه الله تعالى - فى البنيان، وكلفه به، وفكرت فى عدد من الأماكن التى تطلع نفسه الكريمة إلى تخليد آثاره فى بنيانها، مَدّ الله فى عمره، وأوفى بها على أقصى أمله، علمت أنَّ أسه وقوامه الصخر والاستكثار منه، فأثارت لى همتى ونصيحتى حكمة حيلة أحكمها

سعدك وجـدك اللذان يبعثان مـا لا يتوهم علمه، حيلة أقيـم لك بها فى عام واحد عدد ما كـان يقوم على يد عبدك ابن عاصم فى عشـرين عاما، وينتهى تحصيل النفـقة فيه إلى نحو الثمـانين ألفا، أعجّل شأنه فى عام سوى الـتوفير العظيم الذى يبديه العيان قبلا إن شاء الله تعالى، وكذلك ما ثاب إلى فى أمر الخشب لهـذه المنية المكرمة، فإن ابن خليل عـبدك المجتهـد الدءوب انتهى فى تحصيـل عدد ما تحتـاج إليه، ثلاث مائة ألف عود، ونيف على عـشرين ألف عود، على أنّه لا يدخل منه فى السنة إلاّ نحو الألفى عـود، ففتح لى سعدك رأيا أقيم له بتمامه جميع هذه الخشب العام على كماله، بورود الجليبة لوقتها، وقيمته على الرخص ما بين الخمسين ألفا إلى الستين ألفا.

انتهى ما بعث به الوزير ابن شهيد ملخصا.

ومن الغريب مـا يحكى أنَّ أمير المؤمنين أراد الفصـد، فقعد فى الـبهو بالمجلس الكبـير المشرف بأعـلى مدينته بالـزهراء، واستدعى الطبـيب لذلك، وأخذ الطبيب المبضع، وجس عضد الناصر، فبينما هو كذلك إذ أطل زرزور، فصعد على إناء ذهب بالمجلس وأنشد:

أيهـا الفـاصـد رفـقـا بأمـيـر المؤمـنيـنا

إنما تفـصـد عـرقـا فـيـه مـحـيـا العـالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعـد المرة، فاستظرف أميـر المؤمنين الناصر ذلك غاية الاسـتظراف وسر به غاية السـرور، وسأل عمـن اهتدى إلى ذلك وعلم الزرزور، فـذكر له أنَّ السـيـدة الكبرى مـرجانـة، أم ولده ولى عهـد الحكم المستنصر بالله، صنعت ذلك، وأعدته لذلك الأمـر، فوهب لها ما ينيف على ثلاثين ألف دينار.

والناصر المذكور[1] هو البانى لمدينة الزهراء العظيمة المقدار. وكان يعمل فى جامعهـا حين شرح فيه من حذاق الفعلة كل يـوم ألف نسمة، منها ثلاث مئة بناء، ومائتـا نجار، وخمس مائة من الأجراء وسار أهل الصنـائع، فاستتم بنيانه وإتقـانه فى مدة ثمانيـة وأربعين يوما، وجـاء غاية الإتقان، من خمـسة أبهاء عجيبة الصنعـة. وطوله من القبلة إلى الجوف، حاشى المقصورة، ثلاثون ذراعا، وعرض البـهو الأوسط من أبهائه من الشرق إلى الغـرب ثلاث عشرة ذراعا، وعـرض كل بهـو من الأربعة المكتنفـة له اثنتا عـشرة ذراعـا، وطول صحنـه المكشوف من القـبلة إلى الجوف ثلاث وأربعـون ذراعًا، وعـرضه من الشرق إلى الغرب إحدى وأربعون ذراعًا، وجمـيعه مفروش بالرخام الخمرى؛ وفى وسطه فوارة يجـرى فيهـا الماء؛ فطول هذا المسجد أجـمع من القبلة إلى الجوف - سـوى المحراب - سـبع وتسعون ذراعًـا، وعرضـه من الشرق إلى الغرب تسـع وخمسـون ذراعًا، وطول صـومعتـه فى الهواء أربعـون ذراعا، وعرضها عشر أذرع فى مثلها.

وأمر الناصر[2] لدين الله باتخاذ منبر بديع لهذا المسجد؛ فصنع فى نهاية من الحسن، ووضع فى مكانه منه، وحظرت حوله مقصـورة عجيبة الصنعة. وكـان وضع هذا المنبـر فى مكانه من هذا المسـجد عند إكـمـاله، وذلك يوم الخميس لسبع بقين من شعبان من سنة تسع وعشرين وثلاث مئة.

وكان فى صدر[3] هذه السنة كمل الناصر بنيـان القناة الغريبة الصنعة، التى أجرى فيها الماء العذب من جبل قرطـبة إلى قصر الناعورة غربى قرطبة،

(١) نفح الطيب ١/ ٥٦٤.

(٢) نفح الطيب ١/ ٥٦٤.

(٣) نفح الطيب ١/ ٥٦٤.

فى المناهر المهندسة، وعلى الحنايا المعقودة، يجرى ماؤها بتدبير عجيب، وصنعة غريبة محكمة، إلى بركة عظيمة، عليها أسد عظيم الصورة، بديع الصنعة، شديد الروعة، لم يشاهد أوفى منه ولا أبهى منه فيما صور الملوك فى غابر الدهر، مطلى بذهب إبريز، وعيناه جوهرتان، لهما وميض شديد. يجوز هذا الماء إلى عجز هذا الأسد، فيمجه فى تلك البركة من فيه، فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره، وثجاجة صبه، فتسقى من مجاجة جنان هذا القصر على سعتها، ويستفيض على ساحاته وجنباته، ويمد النهر الأعظم بما فضل منه، فكانت هذه القناة وبركتها، والتمثال الذهب الذى يصب فيها، من أعظم آثار الملوك فى غابر الدهر، لبعد مسافتها، واختلاف مسالكها، وفخامة بنيانها، وسُمّو أبراجها، التى يترقى الماء فيها، ويتصوب من أعاليها.

وكان مدة العمل فيها، من يوم ابتدئت من الجبل إلى أنْ وصلت [أعنى القناة] إلى هذه البركة، أربعة عشر شهرًا. وكان انطلاق الماء فى هذه البركة الانطلاق الذى اتصل واستمر، يوم الخميس غرة جمادى الآخرة من السنة المذكورة، وكانت للناصر فى هذا اليوم بقصر الناعورة دعوة حسنة، أفضل فيها على عامة أهل مملكته، ووصل المهندسين والقوام بصلات حسنة جزيلة.

واستمر العمل فى مدينة الزهراء من عام خمسة وعشرين وثلاث مئة [إلى آخر دولة الناصر وابنه الحكم، وذلك نحو من أربعين سنة][1].

ولما فرغ من بناء مسجد الزهراء على ما ذكره آنفًا، كانت أول جماعة صليت فيه صلاة المغرب من ليلة الجمعة لثمان بقين من شعبان، وكان الإمام

(١) نفح الطيب ج١ ص ٥٦٥ وما بين حاصرتين منه.

لها فيه القاضى [أبا عبد الله][1] محمّد بن عبد الله بن أبى عيسى. ومن الغد صلى الناصر فيه الجمعة، وأوّل خطيب خطب به القاضى المذكور.

ولمّا بنى الناصر[2] قصر الزهراء. المتناهى فى الجلالة والفخامة، وأطبق الناس على أنّه لم يبن مثله فى الإسلام البتة، وما دخل إليه أحد قط من سائر البلاد النائية، والنحل المختلفة، من ملك وارد، ورسول وافد، وتاجر، وجهبذ، وفى هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة، إلاّ وكلهم قطع أنّه لم ير له شبيها، بل لم يسمع به، بل لم يتوهم كون مثله، حتى إنّه كان أعجب ما يؤمله القاطع إلى الأندلس فى تلك العصور النظر إليه، وتحدث عنه؛ والأخبار عن هذا تتسع جدا، والأدلة عليه تكثر، ولو لم يكن فيه إلاّ السطح الممرد، المشرف على الروضة، المباهى بمجلس الذهب والقبة وعجائب ما تضمنته من إتقان الصنعة، وفخامة الهمة، وحسن المستشرف، وبراعة الملبس والحلة، ما بين مرمر مسنون، وذهب موضون، وعمد كأنما أفرغت فى القوالب، ونقوش كالرياض، وبرك عظيمة محكمة الصنعة، وحياض وتماثيل عجيبة الأشخاص، لا تهتدى الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها؛ فسبحان الذى أقدر هذا المخلوق الضعيف على إبداعها واختراعها من أجزاء الأرض المنحلة، كيما يُرِى الغافلين عنه من عباده، مثالاً لما أعده لأهل السعادة فى دار المقامة، التى لا يسلط عليها الفناء، ولا تحتاج إلى الكرم، لا إله إلاّ هو المنفرد بالكرم.

---

(١) التكملة من نفح الطيب.

(٢) نفح الطيب ١/ ٢٦٥.

وذكر المؤرخ أبو مروان بن حيان[1] صاحب الشرطة، أن مبانى قصر الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية، ما بين كبيرة وصغيرة، حاملة ومحمولة، ونيف على ثلاث مئة سارية زائدة؛ وفسر بعضهم هذا النيف بثلاث عشرة منها ما جلب من دينة رومة، ومنها ما أهداه صاحب القسطنطينية؛ وأنَّ مصاريع أبوابها، صغارها وكبارها، كانت تنيف على خمسة عشر ألف باب، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه، والله أعلم، فإنها كانت من أهول ما بناه الإنس، وأجله خطرًا، وأعظمه شأنًا.

وقال بعض المؤرخين: وكان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألف فتى وسبع مئة وخمسين فتى، ودخالتهم من اللحم كل يوم، حاشى أنواع الطير والحوت، ثلاثة عشر ألف رطل؛ وعدة النساء بقصر الزهراء، الصغار والكبار وخدم الخدمة، ستّة آلاف وثلاث مائة امرأة وأربع عشرة. ورأيت فى بعض الدواوين - وهو الصواب إن شاء الله - أنَّ عدد الصقالبة ثلاثة آلاف وسبع مئة وخمسون، [وجعل بعضهم مكان الخمسين سبعة وثمانين][2]، وعدد النساء بقصر الزهراء مثل ما ذكرنا أوّلاً.

ثم قال بإثره: وكان لهؤلاء من اللحم ثلاثة عشر ألف رطل، تقسم من عشرة أرطال للشخص إلى ما دون ذلك، سوى الدجاج والحجل وصنوف الطير وضروب الحيتان. والله تعالى اعلم.

وقال ابن حيان[3]: ألفيت بخط ابن دحون الفقيه، قال مسلمة بن عبد الله العريف المهندس: بدأ عبد الرحمن الناصر لدين الله بنيان الزهراء أوّل سنة

(١) نفح الطيب ١/ ٥٦٩.

(٢) التكملة من نفح الطيب.

(٣) نفح الطيب ١/ ٥٦٧.

خمس وعشرين وثلاث مائة، وكان مبلغ ما ينفق فيها كل يوم من الصخر المنحوت المنجور المعدل ستّة آلاف صخرة، سوى المنصرف فى التبليط، فإنه لم يدخل فى هذا العدد. وكان يخدم فى الزهراء كل يوم ألف وأربع مئة بغل، منها أربع مئة زوامل الناصر لدين الله، ومن الدواب الأكرية الراتبة للخدمة ألف بغل، لكل منها ثلاثة مثاقيل فى الشهر، يجب لها فى الشهر ثلاثة آلاف مثقال. وكان يرد الزهراء من الجير والجص فى كل ثالث من الأيام ألف ومئة حمل، وكان فيها حمامان، واحدة للقصر والثانية للعامة.

وذكر بعض أهل[1] الخدمة فى الزهراء أنّه قدر النفقة فيها فى كل عام بثلاث مائة ألف دينار، مدة خمسة وعشرين عامًا [التى بقيت من دولة الناصر، من حين ابتدأها، لأنه توفى سنة خمسين]، وحصل جميع الاتفاق فيها، فكان مبلغه خمسة عشر بيت مال.

قال: وجلب إليها الرخام من قَرطاجَنّة وإفريقية وتونس، وكان الذين يجلبونه عبد الله بن يونس عريف البنائين وعلى ابنا جعفر الإسكندرانى. وكان الناصر يصلهم على كل رخمة، صغيرة أو كبيرة بعشرة دنانير.

وقال بعض المؤرخين الأثبات[2]: كان يصلهم على كل رخامة صغيرة بثلاثة دنانير، وعلى كل سارية بثمانية دنانير سجلماسية، وكان عدد السوارى المجلوبة من إفريقية ألف سارية، وثلاث عشرة سارية، ومن بلاد الإفرنج تسع عشرة سارية. وأهدى إليه ملك الروم مئة وأربعين سارية، وسائرها من مقاطع الأندلس: طَرّكونة وغيرها؛ فالرخام المجزع من رَيَّة، والأبيض من غيرها،

(١) نفح الطيب ١/ ٥٦٨ والتكملة منه.

(٢) نفح الطيب ١/ ٥٦٨.

والوردى والأخضر من إفريقية، من كنيسة سفاقس. وأما الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل، الغالى القيمة، فجلبه إليه أحمد اليونانى من القسطنطينية، مع ربيع الأسقف القادم من إيلياء؛ وأما الحوض الصغير الأخضر المنقوش يتماثيل الإنسان، فجلبه أحمد من الشام، وقيل من القسطنطينية مع ربيع الأسقف أيضًا، وقالوا إنّه لا قيمة له، لفرط غرابته وجماله، وحمل من مكان إلى مكان، حنى وصل فى البحر، ونصبه الناصر فى بيت المنام، فى المجلس المستشرف الشرقى، المعروف بالمؤنس، وجعل عليه أثنى عشر تمثالاً من الذهب الأحمر، مرصعة بالدر النفيس الغالى، مما عمل بدار الصناعة بقرطبة: صورة أسد إلى جانبه صورة غزال، إلى جانبه صورة تمساح، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل، وفى المجنبتين حمامة، وشاهين، وطاوس، ودجاجة، وديك، والثانى عشر لم يحضرنى اسمه الآن، وكل هذا من ذهب مرصع بالجوهر النفيس، ويخرج الماء من أفواهها. وكان المتولى لهذا البنيان المذكور ابنه الحكم، لم يتكل فيه الناصر على أمين غيره، وكان يخبز فى أيامه كل يوم برسم حيتان البحيرة ثمان مائة خبزة وقيل أكثر، إلى غير ذلك مما يطول تتبعه.

وكان الناصر[1] قد قسم الجباية أثلاثًا، ثلث للجند وثلث للبناء، وثلث مدخر. وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف ألف، وأربع مئة ألف، وثمانين ألف [دينار]، ومن الستوق والمستخلص سبع مائة ألف، وخمسة وستين ألف دينار، وأما أخماس الغنائم فلا يحصيها ديوان.

(١) نفح الطيب ١/ ٥٦٩ والتكملة عنه.

وقيل إنَّ مبلغ تحصيل النفقة فى بنيان الزهراء مائة مدى من الدراهم القاسمية، بكيل قرطبة. وقيل إنَّ مبلغ النفقة فيها بالكيل المذكور ثمانون مديا وستّة أقفزة، من الدراهم المذكورة. واتصل بناء الزهراء أيام الناصر خمسًا وعشرين سنة، شطر خلافته، ثم اتصل بعد وفاته خلافة ابنه الحكم كلها، وكانت خمسة عشر عاما وأشهرًا. فسبحان الباقى بعد فناء الخلق، لا اله إلاّ هو.

وكانت قرطبة إذ ذاك أم المدائن، وقاعدة الأندلس، وقرارة الملك، وكان عدد شرطاتها أربعة آلاف وثلاثة مئة، وكانت عدة الدور التى فى القصر الكبير أربع مئة دار [ونيفا وثلاثين][1]، وكانت عدة دور الرعايا والسواد بها، والواجب على أهل المبيت فى السور، مئة ألف دار، وثلاثة عشر ألف دار، حاشى دور الوزراء وأكابر الناس والبياض، وعدد أرباضها ثمانية وعشرون، وقيل أحد وعشرون؛ ومبلغ المساجد بها ثلاثة آلاف وثمان مئة وسبعة وثلاثون مسجدًا؛ وعدد حمامات المبرزة للناس سبع مئة حمام، وقيل ثلاث مئة؛ ووسط الأرباض قصبة قرطبة، التى تختص بالسور دونها. وأما اليتيمة التى كانت فى القص فى المجلس البديع؛ فإنها كانت من تحف قصر اليونانيين، بعث بها صاحب القسطنطينية إلى الناصر مع تحف كثيرة سنية.

وكان القاضى منذر بن سعيد البلوطى ممن يكرمه الناصر ويجله، وولاه قضاء جماعته؛ وكان أوّل الأسباب فى معرفته بالناصر، وزلفاه لديه، أَنَّ الناصر لمّا احتفل بالجلوس لدخول رسل ملك الروم الأعظم صاحب القسطنطينية عليه بقصر قرطبة، الاحتفال الذى اشتهر ذكره فى الناس، حسبما تقدم بعض الإلماع به، أحب أنَّ يفوم الخطباء والشعراء بين يديه، لتذكر جلالة

(١) التكملة من نفح الطيب.

مقـعده، وعظيم سلطانه، وتصف مـا تهيأ له من تـوطيد الخلافـة فى دولته. وتقدم إلى الأمير الحكم ابنه وولى عهده، بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء، ويقدمه أمام نشيد الشعراء، فأمر الحكم صنيعه الفقيه الكسيبانى بالتأهب لذلك وإعداد خطة بيـن يدى الخليفة وكـان يدعى من المقدرة على تأليـف الكلام ما ليس فى وسع غيره وحضر المجـلس السلطانى، فلما قام يحاول التكلم بما رآه بهره هول المقام، وأبهة الخلافة، فلم يهتد إلى لفظة بل غشى عليه وسقط إلى الأرض، فـقيل لأبى على البـغدادى إسـماعـيل بن القـاسم القالى صـاحب الأمالى والنوادر وهو [حينئذ][1] ضيف الخليفة الوافد عـليه من العراق وأمير الكلام وبحر اللغة: قم فـارقع هذا الوهى فقام فحـمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على نبيه مـحمّد ﷺ ثم انقطع به القول، فوقف ساكـتا مفكرا فى كلام يدخل به إلى ذكر ما أريد منه، فلمـا رأى ذلك منذر بن سعيد وكان ممن حضر فى زمرة الفقهـاء قام من ذاته [بدرجة من مرقاته][1] فوصل افتتاح أبى على لأول خطبـته بكلام عجـيب، وفصل مـصيب، يسحـه سحـا كأنما يحـفظه قبل ذلك بمدة، وبدأ من المكـان الذى انتهى إليـه أبو على البغـدادى فقال:

أمـا بعد حـمد الله والثنـاء عليه، والتـعداد لآلائه، والـشكر لنعمـائه والصلاة على محمّد صفيه وخاتم أنبـيائه، فإن لكل حادثة مقام، ولكل مقام مقـال، وليس بعد الحق إلاّ الضلال، وإنى قـمت من مقـام كريم، بين يدى ملك عظيم، فأصغوا إلىَّ معشر الملأ بأسماعكم والقنوا عنى بأفئدتكم، إنَّ من الحق أن يقـال للمـحق صـدقت، وللمـبطل كـذبت، وإنَّ الجليل تعـالى فى سمـائه، تقدس بصفـاته وأسمائه، أمـر كليمه موسى ﷺ وعـلى نبينا وعلى جميع أنبـيائه، أن يذكر قومه بأيام الله عز وجل عندهم وفـيه وفى رسول الله

(١) التكملة من نفح الطيب.

ﷺ أسوة حسنة، وإنى أذكـركم بأيام الله عندكم، وتلافيه لكم بخلافـة أمير المؤمنين، التى لمت شعـثكم، وأمنت سربكم، ورفعت قـوتكم، بعد أن كنتم قليلا فكثَّركم، ومسـتضعفين فقواكم، ومسـتذلين فنصركم ولاه الله رعايتكم وأسند إليه إمـامتكم أيام ضربت الفـتنة سرادقها على الآفـاق، وأحاطت بكم شعل النفاق، حتى صرتم فى مثل حدقة البعير من ضيق الحال، ونكد العيش والتقتـير، فاستبـدلتم بخلافته من الشدة الرخـاء، وانتقلتم بيمن سيـاسته إلى تمهيد [كنف][1] العافـية بعد استـيطان البلاء. أنشدكم بالله معـاشر المللأ ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها، والسُّبُل مخوفة فأمنها، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها، ألم تكن البـلاد خرابا فعمرها، وثغور المسلمـين مهتضمة فـحماها ونصرها، فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتلافـيه جمع كلمتكم بعد افتراقا بإمامته، حتى أذهب الله عنكم غـيظكم، وشفى صدوركم، وصرتم يدا على عدوكم، بعد أن كان بأسكم بينكم، فأنشدكم الله ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقـها من عـقالها، ألم يـتلاف صلاح الأمـور بنفسـه بعد اضطراب أحوالها، ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد، حتى باشره [بالقوة][1] والمهجة والأولاد، واعتـزل النسوان، وهجر الأوطان، ورفـض الدعة وهى محـبوبة، وترك الركون إلى الراحـة وهى مطلوبة، بطوية صحـيحـة وعزيمة صـريحة. وبصيرة نافذة ثاقبة، وريح هابة غالـبة، ونصرة من الله واقعة واجبة، وسلطان قاهر، وجد ظاهر، وسـيف منصور، تحت عدل مشهور، متـحملا للنصب، مسـتقلا لما ناله فى جـانب الله من التعب، حـتى لانت الأحوال بعد شـدتها وانكسرت شـوكة الفتنة عند حدتـها، ولم يبق لها غارب إلاّ جَـبَّه، ولا نَجمَ لأهلها قرن إلاّ جده، فأصبحتم بنعمة الله إخوانا، وبلم أمير المؤمنين لشعثكم

(١) التكملة من نفح الطيب.

على أعـدائه أعوانا، حـتى تواترت لديكم الفـتـوحات، وفـتح الله عليكم، بخلافتـه أبواب [الخيرات و][1] البركـات، وصارت وفود الروم وافـدة عليه وعليكم، وآمال الأقصين والأدنين مسـتخدمة إليه وإليكم، يأتون من كل فج عميق، وبلد سحيق، لأخذ حـبل بينه وبينكم جملة وتفصيلا ﴿... لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً... (٤٤)﴾ [الأنفال] لن يخلف الله وعده، ولهذا الأمر وما بعده، وتلك أسباب ظاهرة بادية، تدل على أمـور باطنة خافية دليلها قـائم، وجفنها غير نائم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ... (٥٥)﴾ [النور] الآية. وليس فى تصديق مـا وعد الله ارتياب، ولكل نبـأ مستقر ولكل أجـل كتاب، فاحمـدوا الله أيها الناس على آلائه واسألوه المزيد من نعمـائه، فقد أصبحتم فى خلافـة أمير المؤمنين، أيده الله بالعصـمة والسداد، وألهـمه بخالص التوفـيق إلى سبيل الرشـاد، أحسن الناس حالا، وأنعمـهم بالا، وأعزهم قرارا، وأمنعهم دارا، وأكثفـهم جمعا، وأجمـلهم صنعا، لا تهـاجون ولا تذادون، وأنتم بحـمد الله على أعـدائكم ظاهرون، فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم، والتزام الطاعة لخليفتكم، وابن عم نبيكم ﷺ فإن من نزع يدا من الطاعة، وسعى فى تفريق الجماعة، ومرق من الدين، فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، وقد علمتـم أنَّ فى التعلق بعصمـتها [والتمسك بـعروتها][2]، حفظ الأموال وحقن الدمـاء، وصلاح الخـاصة والدهمـاء، وأنَّ بقوم تقـام الحدود، وتوفى العهـود، وبها وصلت الأرحـام، ووضحت الأحكام، وبهـا سد الله الخلل، وأمن السـبل، ووطأ الأكنـاف، ورفع الاخـتـلاف، وبهـا طاب لكم القـرار

(١) التكملة من نفح الطيب.

(٢) التكملة من نفح الطيب.

واطمأنت بكم الدار فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به، فإنه تبارك وتعالى يقول: ﴿ ... أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ... ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء] الآية. وقد علمتم ما أحاط بكم فى جزيرتكم هذه من ضروب المشركين وصنوف الملحدين، الساعين فى شق عصاكم، وتفريق ملاكم الآخذين فى مخاذلة دينكم وهتك حريمكم وتوهين دعوة نبيكم ﷺ وعلى جميع النبيين والمرسلين. أقول قولى هذا وأختتم بالحمد لله رب العالمين واستغفر الله الغفور الرحيم، فإنه خير الغافرين.

فخرج الناس يتحدثون عن حسن مقام منذر وثبات جنانه، وبلاغة لسانه. وكان الخليفة الناصر لدين الله أشدهم تعجبا منه فأقبل على ولى عهده ابنه الحكم يسأله عنه، ولم يكن يثبت معرفة عينه، وقد سمع باسمه فقال له الحكم: هو منذر بن سعد البلوطى. فقال: والله لقد أحسن ما شاء فلئن كان حبر خطبته هذه وأعدها مخافة أن يدور ما دار، فيتلافى الوهى، فإنه لبديع من قدرته واحتياطه، ولئن كان أتى بها على البديهة لوقته، إنه لأعجب وأغرب، فكان سبب اتصاله به، واستعماله له.

وذكر ابن أصبغ الهمدانى عن منذر القاضى أنه خطب يوما وأراد التواضع فكان من فصول خطبته أن قال:

حتى متى وإلى متى أعظ ولا أتعظ، وأزجر ولا أزدجر، أدل الطريق على المستدلين، وأبقى مقيما مع الحائرين، كلا إن هذا لهو البلاء المبين ﴿ ... إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ... ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأعراف] الآية. اللهم فرغنى لما خلقتنى له، ولا تشغلنى بما تكفلت لى به، ولا تحرمنى وأنا أسألك، ولا تعذبنى وأنا استغفرك، يا أرحم الراحمين قال:

وكان الخليفة الناصر[1] لدين الله كَلِفًا بعمارة الأرض، وإقامة معالمها، وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك، وعزة السلطان، فأفضى به الإغراق فى ذلك إلى أن ابتنى مدينة الزهراء، البناء الذى شاع ذكره، واستفرغ وسعه فى تنميقها، وإتقان قصورها، وزخرفة مصانعها، فأراد القاضى منذر أن يغض منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطاب والحكمة، والتذكير بالإنابة والرجوع، فأدخل فى خطبته فصلا مبتدئا بقوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)﴾ [الشعراء]. ولا تقولوا: «سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين». «قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن أتقى» وهى دار القرار ومكان الجزاء.

ووصل ذلك بكلام جزل، وقول فصل، ومضى فى ذم تشييد البنيان والاستغراق فى زخرفته، والإسراف فى الإنفاق [عليه][2] فجرى طلقا، وانتزع فيه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ ... (١٠٩)﴾ [التوبة] الآية؛ وأتى بما يشاكل المعنى من التخويف بالموت، والتحذير من فجأته، والدعاء إلى الزهد فى هذه الدار الفانية، والحض على اعتزالها، والرفض لها، والندب إلى الإعراض عنها، والإقصار عن طلب اللذات، ونهى النفس عن اتباع هواها، فأسهب فى ذلك كله، وأضاف إليه آى القرآن ما يطابقه، وجلب من الحديث والأثر ما يشاكله، حتى ادكر من حضر من الناس وخضعوا ورقوا، واعترفوا وبكوا، ودعوا، وأعلنوا التضرع إلى الله

(١) نفح الطيب ١/ ٥٧٠.

(٢) التكملة من نفح الطيب.

والتوبة، والابتهال فى المغفرة، وأخذ خليفتهم من ذلك بأوفر حظ وقد علم أنه المقصود، فبكى وندم على ما سلف له [من فرطه][1] واستعاذ بالله من سخطه، إلاّ أنه وجد على المنذر بن سعيد لغلظ ما تقرعه به، فشكا ذلك إلى ولده الحكم بعد انصرافه، وقال: والله قد تعمدنى منذر بخطبته، وما عنى بها غيرى، فأسرف علىّ، وأفرط فى تقريعى، ولم يحسن السياسة فى وعظى، فزعزع قلبى، وكاد بعصاه يقرعنى، واستشاط غيظا عليه، فأقسم إلاّ يصلى خلفه صلاة الجمعة خاصة، فجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة، ويجانب الصلاة بالزهراء، وقال له الحكم: وما الذى يمنعك من عزل المنذر من الصلاة بك والاستبدال منه إذ كرهته؟ فزجره وانتهره وقال له: أمثل منذر بن سعيد فى خير وفضله وعلمه - لا أم لك - يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد، [سالكة غير القصد][2]؟ هذا ما لا يكون وإنى لأستحيى من الله ألا أجعل بينى وبينه فى الصلاة الجمعة شفيعا مثل منذر، فى ورعه وصدقه، ولكنه قد أحرجنى فأقسمت، ولوددت أنى أجد سبيلا إلى كفارة يمينى بملكى بل يصلى بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله تعالى.

وقحط الناس آخر مدة الناصر، فأمر القاضى المذكور منذر بن سعيد بالبروز إلى الاستسقاء بالناس، فتأهب لذلك، وصام بين يديه أياما [ثلاثة] تنفلا وإنابة ورهبة، فاجتمع له الناس فى مصلى الربض بقرطبة بارزين إلى الله تعالى فى جمع عظيم، وصعد الخليفة الناصر فى أعلى مصانعه المرتفعة

(١) التكملة من نفح الطيب.

(٢) التكملة من نفح الطيب.

من القصر، ليشارف الناس ويشاركهم فى الخروج إلى الله تعالى، والضراعة له، فأبطأ القاضى حتى اجتمع الناس، وغصت بهم ساحة المصلى، ثم خرج نحوهم ماشيا متضرعا مخبتا متخشعا، وقام ليخطب، فلما رأى بدار الناس إلى ارتقابه واستكانتهم من خيفة الله، وإخباتهم له، وابتهالهم إليه، رقت نفسه، وغلبته عيناه، فاستعبر وبكى حينا، ثم افتتح خطبته بأن قال:

يا أيها الناس، سلام عليكم ثم سكت، ووقف شبيه الحصر، ولم يك من عادته، فنظر الناس بعضهم إلى بعض، لا يدرون ما عراه، ولا ما أراد بقوله، ثم اندفع تاليا قوله تعالى: ﴿... **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾** ﴾ [الأنعام] استغفروا ربكم إنّه كان غفارا واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه، وتزلفوا بالأعمال الصالحات لديه.

قال الحاكى: فضج الناس بالبكاء، وجأروا بالدعاء، ومضى على تمام خطبته، فقرع النفوس بوعظه، وانبعث الإخلاص بتذكريه، فلم ينقض النهار حتى أرسل الله السماء بماء منهمر، روى الثرى، وطرد المحل، وسكن الأزل، والله لطيف بعباده.

وكان له فى خطب الاستسقاء استفتاح عجيب، ومن أن قال وقد سرح طرفه فى ملأ الناس، عندما شخصوا إليه بأبصارهم فهتف بهم كالمنادى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ وكررها [عليهم][1]، مشيرا بيده فى نواحيهم: ﴿... **أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾** ﴾ [فاطر]. فاشتد وجد الناس، وانطلقت أعينهم بالبكاء، ومضى فى خطبته.

---

(١) التكملة من نفح الطيب.

قال القاضى أبو الحسن[1]: ومن أخبار منذر المحفوظة له مع الخليفة الناصر، فى إنكاره عليه الإسراف فى البناء، أن الناصر اتخذ لسطح القبيبة المصغرة الاسم للخصوصية، التى كانت مائلة على الصرح الممرد المشهور شأنه بقصر الزهراء، قراميد مغشاة ذهبا وفضة، أنفق عليها مالاً جسيما، وقرمد سقفها به، وجعل سقفها صفراء فاقعة، إلى بيضاء ناصعة، فتستلب الأبصار بأشعة أنوارها، وجلس فى إثر تمامها يوما لأهل مملكته، فقال لقرابته ومن حضر من الوزراء وأهل الخدمة مفتخرا عليهم بما صنعه من ذلك: هل رأيتم أو سمعتم ملكا كان قبلى فعل مثل هذا أو قدر عليه؟ فقالوا: لا والله يا أمير المؤمنين، وإنك لأوحد فى شأنك كله، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه، ولا انتهى إلينا خبره، فأبهجه قولهم وسره. فبينما هو كذلك إذ دخل عليه القاضى منذر بن سعيد واجما ناكس الرأس، فلما أخذ مجلسه، قال له كالذى قال لوزرائه، من ذكر السقف المذهب، واقتداره على ابتداعه، فأقبلت دموع القاضى تتحدر على لحيته وقال له: والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أنَّ الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين، مع ما آتاك الله من فضله ونعمته، وفضلك به على العالمين، حتى ينزلك منازل الكافرين. قال: فانفعل عبد الرحمن لقوله وقال له: انظر ما تقول، وكيف أنزلتنى منزلتهم. فقال له: نعم أليس الله تعالى يقول: ﴿**وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣)**﴾ [الزخرف]. فوجم الخليفة وأطرق مليا ودموعه تتساقط خشوعا لله سبحانه. ثم أقبل على منذر وقال له: جزاك الله يا قاضى عنا وعن نفسك

(١) نفح الطيب ١/ ٥٧٣.

خيرا وعن الدين والمسلمين أجمل الجزاء، وكَثَّر فى الناس أمثالك فالذى قلت هو الحق. وقام عن مـجلسه ذلك [وهو يستغـفر الله تعالى][1]، وأمر بنقض سقف القبيبة وأعاد قرمدها ترابا على صفة غيرها. انتهى.

وحكى غير واحـد أنّه وجد بخط الناصر رحمـه الله: أيام السرور التى صفت له دون تكدير يوم كـذا من شهر كذا من سنة كـذا ويوم كذا من كذا. وعدت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوما.

فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعـدم صفائها، وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها. هذا الخليـفة الناصر حلف السعـود، المضروب به المثل فى الارتقاء فى الدنيا والصعود، ملكها خمسين سنة وستّة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام، ولم تصف له إلاّ أربعة عشر يوما، فسبـحان ذى العزة القائمة، والمملكة الدائمة، تبارك اسمه تعالى لا اله إلاّ هو.

وحكى أنّه - أعنى الناصر[2] - لمّا أعذر لأولاد ابنه أبى مـروان الأكبر عبيد الله، اتخـذ لذلك صنيعا عظيما بقصـر الزهراء لم يتخلف عنه أحد من أهل مملكته، وأمر أن ينذر لشهوده الفقـهاء المشاوَرون، ومن يليهم من العلماء والعدول، ووجوه الناس، فتخلف من بينهم الفقيه المشاور أبو إبراهيم المذكور الذكر فى كتب النوازل والأحكـام، وافتقد مكانه لارتفاع منزلتـه، فساء ذلك الخليفة الناصر ووجد على أبى إبراهيـم، وأمر ابنه ولى العهد الحكم بالكتاب إليه، والتفنيد له، فكتب إليه الحكم رقعة نسختها[3]:

---

(١) التكملة من نفح الطيب.

(٢) نفح الطيب ١/ ٣٧٦.

(٣) نفح الطيب ج١ ص ٣٧٦.

بسم الله الرحمن الرحيم

حفظك الله وتولاك، وسددك ورعاك، لما امتحن أمير المؤمنين مولاى وسيدى أبقاه الله الأولياء الذين يستعد بهم، وجدك متقدما فى الولاية متأخرا عن الصلة، على أن قد أنذرك أبقاه الله، خصوصا للمشاركة فى السرور الذى كان عنده، لا أعدمه الله توالى المسرة، ثم أُنْذِرْتَ من قبل إبلاغا فى التكرمة، فكان على ذلك كله من التخلف ما ضاقت عليه فيه المعذرة، واستبلغ أمير المؤمنين فى إنكاره ومعاتبتك عليه، فأعيت عليك عنك الحجة. فعرِّفنى أكرمك الله ما العذر الذى أوجب توقفك عن إجابة دعوته، ومشاهدة السرور الذى سُرَّ به ورغب المشاركة فيه [لنعرّفه][1]، أبقاه الله بذلك، فتسكن نفسه العزيزة إليه، إن شاء الله تعالى».

فأجابه أبوه إبراهيم:

«سلام على الأمير ورحمة الله وبركاته.

قرأت أبقى الله سيدى، هذا الكتاب وفهمته، ولم يكن توقفى لنفسى، إنّما كان لأمير المؤمنين سيدنا أبقى الله سلطانه، لعلمى بمذهبه، ولسكونى إلى تقواه واقتفائه لأثر سلفه الطيب رضوان الله عليهم، فإنهم كانوا يستبقون من هذه الطبقة بقية لا يمتهنونها بما يشينها، ولا بما يغض منها، ويطرق إلى تنقصها، فيستعدون بها لدينهم ويتزينون[2] بها عند رعاياهم، ومن يفد عليهم من قصادهم، فلهذا تخلفت، ولعلمى بمذهبه توقفت إن شاء الله تعالى.

قال فلما أقرأ الحكم أباه الناصر لدين الله جواب أبى إبراهيم إسحاق

(١) التكملة من نفح الطيب ج١ ص ٣٧٦.

(٢) فى سائر الأصول: «ويتزيَّون» والمثبت من نفح الطيب ج١ ص ٣٧٧.

أعجبه واستحسن اعتذاره، وزال ما بنفسه عليه. وكان الفقيه أبو إبراهيم المذكور معظما عند الناصر وابنه الحكم، وحق لهما أن يعظماه.

وقد حكى الفقيه أبو القاسم مفرج بن محمّد بن مفرج[1] قال: كنت أختلف إلى الفقيه أبى إبراهيم رحمه الله فيمن يختلف إليه للتفقه والرواية، فإنى لعنده فى بعض الأيام فى مجلسه، بالمسجد المنسوب لأبى عثمان، الذى كان يصلى فيه قرب داره، بجوفى قصر قرطبة، ومجلسه حافل بجماعة الطلبة، وذلك بين الصلاتين، إذ دخل عليه خصى من أصحاب الرسائل جاء من عند الخليفة الحكم، فوقف وسلم وقال له: يا فقيه أجب أمير المؤمنين أبقاه الله فإن الأمر خرج فيك، وها هو قاعد ينتظرك، وقد أمرت بإعجالك، فالله الله. فقال له: سمعا وطاعة لأمير المؤمنين ولا عجلة فارجع إليه - وفقه الله - وعرفه عنى أنك وجدتنى فى بيت من بيوت الله عز وجل مع طلاب العلم أسمعهم حديث ابن عمه رسول الله ﷺ فهم يقيدونه عنى، وليس يمكننى ترك ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم، فى رضاء الله وطاعته، فذلك أوكد من مسيرى إليه الساعة، فإذا انقضى أمر من اجتمع إلىَّ من هؤلاء المحتسبين فى ذات الله، الساعين فى مرضاته، مشيت إليه إن شاء الله تعالى.

ثم إنّه أقبل على شأنه، ومضى الخصى يهينم متضاجرا من توقفه، فلم يك إلاّ ريثما أدى جوابه وانصرف سريعا ساكن الطيش. فقال له: يا فقيه، أنهيت قولك على نصه إلى أمير المؤمنين أبقاه الله فأصغى إليه، وهو يقول [لك][2]: جزاك الله خيرا عن الدين، وعن أمير المؤمنين، وجماعة المسلمين

(١) نفح الطيب ١/ ٣٧٧.

(٢) التكملة من نفح الطيب.

وأمتعهم بك، وإذا أنت أَوْعَبْتَ فامض إليه راشدا إن شاء الله تعالى، فقد أُمِرْتُ أن أبقى معك حتى ينقضى شغلك، وأذكرك تمضى معى. فقال له: حسن جميل، ولكنى أضعف عن المشى إلى باب السدة، ويصعب على ركوب دابة لشيخوختى وضعف أعضائى، وباب الصناعة الذى يقرب إلى من أبواب القصر المكرم أحوط لى وأرفق بى، فإن رأى أمير المؤمنين أيده الله تعالى أن يأمر بفتحه لأدخل إليه منهَ هوّن على المشى، وودُع جسمى، وأحب أن تعود فتنهى إليه ذلك عنى حتى تعرف رأيه فيه وكذلك تعود إلىَّ، فإنى أراك فتى سديدا، فكن على الخير معينا.

ومضى عنه الفتى ثم رجع بعد حين وقال: يا فقيه قد أجابك أمير المؤمنين إلى ما سألت، وأمر بفتح باب الصناعة وانتظارك من قِبَله، ومنه خرجت إليك، وأُمرت بملازمتك مذكرا بالنهوض عند فراغك، وقال: افعل راشدا وجلس الخصى جانبا حتى أكمل أبو إبراهيم مجلسه بأكمل وأفسح ما جرت به عادته غير منزعج ولا قلق، فلما انفضضنا عنه قام إلى داره فأصلح من شأنه ثم مشى إلى الخليفة الحكم فوصل إليه من ذلك الباب، وقضى حاجته من لقائه، ثم صرفه على ذاك الباب، فأعيد إغلاقه على إثر خروجه.

قال مفرج: ولقد تعمدنا فى تلك العشية إثر قيامنا عن الشيخ أبى إبراهيم المرور بهذا الباب المعهود إغلاقه بدُبْر القصر، لنرى الذى تجشم الخليفة له فوجدناه كما وصف الخصى مفتوحا، قد حفه الخدم والأعوان منزعجين، ما بين كناس وفراش متهيئين لانتظار أبى إبراهيم، فاشتد عجبنا لذلك، وطال تحدثنا عنه. انتهى.

هكذا هكذا تكون المعالى طرق الجد غير طرق المزاح

وكان الخليفة الحكم المستنصر[1] المذكور قام بأعباء الملك أحسن قيام، لما توفى والده الناصر فى يوم الأربعاء لثلاث وقيل لاثنين - مضين من شهر رمضان من سنة خمسين وثلاث مائة، واستقرت الخلافة به حتى لم يعدم من الناصر إلاّ شخصه، واعتلى سرير الملك ثامن وفاة أبيه يوم الخميس، وأنفذ الكتب إلى الآفاق بتمام الأمر له ودعا الناس إلى بيعته، واستقبل من يومه النظر فى تمهيد سلطانه وتثقيف مملكته وضبط قصوره وترتيب أجناده.

وأول ما أخذ البيعة على صقالبة قصره الفتيان المعروفين بالخلفاء الأكابر كجعفر صاحب الخيل والطرز وغيره من عظمائهم، وتكفلوا بأخذها على من وراءهم وتحت أيديهم من طبقتهم [وغيرهم][2]، وأوصل إلى نفسه فى الليل دون هؤلاء الأكابر من الكتاب والوصفاء والمقدمين والعرفاء فبايعوه، فلما كملت بيعتهم وبيعة أهل القصر، تقدم إلى عظيم دولته جعفر بن عثمان بالنهوض فى أخيه شقيقه أبى مروان عبيد الله المتخلف لعلته، بأن يلزمه الحضور للبيعة دون معذرة، وتقدم إلى موسى بن أحمد بن حدير بالنهوض أيضًا فى أبى الأصبغ عبد العزيز شقيقه الثانى، فمضيا اليهما كل واحد منهما فى قطيع من الجند، وأتيا بهما إلى قصر مدينة الزهراء، ونفذ غيرهما من وجوه الرجال فى الخيل، للإتيان بغيرهما من الإخوة، وكانوا يومئذ ثمانية، فوافى جميعهم الزهراء فى الليل، فنزلوا فى مراتبهم بفصلان دار الملك، وقعدوا فى المجلسين الشرقى والغربى، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك فى البهو الأوسط من الأبهاء المذهبة القبلية التى فى السطح الممرد، فأول من

(١) نفح الطيب ١/ ٣٧٧.

(٢) التكملة من نفح الطيب.

وصل إليه الإخوة فبايعوه وأنصتوا لصحيفة البيعة، والتزموا الأيمان المنصوصة بكل ما انعقد فيها، ثم بايع بعدهم الوزراء وأولادهم وإخوتهم، ثم أصحاب الشرطة وطبقات أهل الخدمة، وقعد الإخوة والوزراء والوجوه عن يمينه وشماله إلاّ عيسى بن فطيس فانه كان يأخذ البيعة على الناس، وقام الترتيب على الرسم فى مجالس الاحتفال المعروفة، فاصطف فى المجلس الذى قعد فيه أكابر الفتيان يمينا وشمالا إلى آخر البهو كل منهم على قدره فى المنزلة، عليهم الظهائر البيض شعار الحزن، قد تقلدوا فوقها السيوف، ثم تلاهم الفتيان الوصفاء عليهم الدروع السابغة والسيوف الحالية صفين منتظمين فى السطح، وفى الفصلان المتصلة به ذوو الأسنان من الفتيان الصقالبة الخصيان، لابسين البياض بأيديهم السيوف يتصل بهم من دونهم من طبقات الخصيان الصقالبة ثم تلاهم الرماة متنكبين قسيهم وجعابهم، ثم وصلت صفوف هؤلاء الخصيان الصقالبة، صفوف العبيد الفحول شاكين فى الأسلحة الرائقة والعدة الكاملة، وقامت التعبية فى دار الجند والترتيب من رَجَّالة العبيد، عليهم الجواشن والأقبية البيض، وعلى رءوسهم البيضات الصقلية، وبأيديهم التراس الملونة والأسلحة المزينة، انتظموا صفين إلى آخر الفصيل. وعلى باب السدة الأعظم البوابون وأعوانهم، ومن خارج باب السدة فرسان العبيد إلى باب الأقباء، واتصل بهم فرسان الحشم، وطبقات الجند والعبيد والرماة، موكبا إثر موكب، إلى باب المدينة الشارع إلى الصحراء فلما تمت البيعة أُذن للناس بالانفضاض إلاّ الإخوة والوزراء و[أهل][1] الخدمة، فإنهم مكثوا بقصر الزهراء إلى أن احتمل جسد الناصر رحمه الله إلى قصر قرطبة للدفن هنالك فى تربة الخلفاء.

(١) التكملة من نفح الطيب.

وفى ذى الحجة[1] من سنة خمسين المذكورة تكاثرت بباب الخليفة الحكم من البلاد للبيعة والتماس المطالب، من أهل طليطلة وغيرها من قواعد الأندلس وأصقاعها، فتوصلوا إلى مجلس الخليفة بمحضر جميع الوزراء والقاضى منذر بن سعيد والملأ وأخذت عليهم البيعة، ووقعت الشهادات فى نسخها.

وفى آخر صفر[2] من سنة إحدى وخمسين أخرج الخليفة الحكم المستنصر مولييه محمدا وزيادا ابنى أفلح الناصرى فى كتيبة من الحشم والخدم لتلقى غالب الناصرى صاحب مدينة سالم المورد للطاغية أردون بن أدفونش الخبيث فى الدولة المتملك على طوائف من أُمم الجلالقة، والمنازع لابن عمه المملك قبله شانجه بن ردمير، وتبرع هذا اللعين أُردون بالمسير إلى باب المستنصر بالله من ذاته غير طالب إذن، ولا مستظهر بعهد، وذلك عندما بلغه من اعتزام المستنصر بالله فى عامه ذلك على الغزو إليه، وأخذه فى التأهب له، فاحتال فى تأميل المستنصر بالله والارتماء إليه وخرج قبل أمان يعقد له، أو ذمة تعصمه فى عشرين رجلاً من وجوه أصحابه، تكنفهم غالب الناصرى الذى خرج إليه، فجاء به نحو مولاه الحكم، وتلقاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور فأنزلاهم ثم تحركا بهم ثانى يوم نزولهم إلى قرطبة، فأخرج المستنصر بالله إليهم هشام بن محمّد بن عثمان المصحفى، فى جيش عظيم كامل التعبية، وقدموا إلى باب قرطبة فمروا باب قصرها، فلما انتهى أردون إلى ما بين السدة وباب الجنان سأل عن مكان رمس الناصر لدين الله، فأشير إلى ما

(١) نفح الطيب ١/ ٣٨٨.

(٢) نفح الطيب ١/ ٣٨٨.

يوازى موضعه من داخل القصر فى الروضة فخلع قلنسوته، وخضع نحو مكان القبر ودعا ثم رد قلنسوته إلى رأسه.

وأمر المستنصر بإنزال أُردون فى دار الناعورة، وقد كان تقدم فى فرشها بأنواع الغطاء والوطاء وانتهى من ذلك إلى الغاية، وتوسع له فى الكرامة ولأصحابه، فأقام بها الخميس والجمعة، فلما كان يوم السبت تقدم المستنصر بالله باستدعاء أردون ومن معه بعد إقامة الترتيب وتبعية الجيوش والاحتفال فى ذلك من العدد والأسلحة والزينة، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك فى المجلس الشرقى من مجالس السطح، وقعد الإخوة وبنوهم والوزراء ونظراؤهم صفا فى المجلس، فيهم القاضى منذر بن سعيد، والحكماء والفقهاء، فأتى محمّد بن القاسم بن طُمْلُس بالملك أُردون وأصحابه، وعالى لبوسه ثوب ديباجى رومى أبيض، وَبْلِيُوَال من جنسه وفى لونه، وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر، وقد حفته جماعة من نصارى وجوه الذمة بالأندلس يؤنسونه ويبصرونه، فيهم وليد بن خيزران قاضى النصارى بقرطبة، وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة وغيرهما فدخل بين صفى الترتيب يقلب الطرف فى نظم الصفوف ويجيل النظر فى كثرتها، وتظاهر أسلحتها، ورائق حليتها، فراعهم ما أبصروه وصلبوا على وجوههم وتأملوا ناكسى رءوسهم غاضين من جفونهم، قد سكرت أبصارهم حتى وصلوا إلى باب الأقباء أول باب قصر الزهراء، فترجل جميع من كان خرج إلى لقائه، وتقدم الملك أردون وخاصة قوامسه على دوابها حتى انتهوا إلى باب السدة، فأمر القوامس بالترجل هنالك والمشى على الأقدام، فترجلوا ودخل الملك أردون وحده راكبا مع محمّد بن طملس، فأنزل فى برطل البهو الأوسط من الأبهاء القبلية التى

بدار الجند على كرسى مرتفع مكسو الأوصال بالفضة، وفى هذا المكان بعينه نزل قبله عدوه ومناوئه شانجة بن ردمير الوافد على الناصر لدين الله رحمه الله تعالى، فقعد أردون على الكرسى وقعد أصحابه بين يديه، وخرج الإذن لأردون الملك من المستنصر بالله بالدخول عليه، فتقدم يمشى وأصحابه يتبعونه إلى أن وصل إلى السطح، فلما قابل المجلس الشرقى الذى فيه المستنصر بالله، وقف وكشف رأسه وخلع برنسه وبقى حاسرا إعظاما لما بان له من الدنو إلى السرير، واستنهض فمضى بين الصفين المرتبين فى ساحة السطح إلى أن قطع السطح وانتهى إلى باب البهو، فلما قابل السرير خر ساجدا سويعة ثم استوى قائما، ثم نهض خطوات وعاد إلى السجود، ووالى ذلك مرارا إلى أن قُدِّم بين يدى الخليفة وأهوى إلى يديه، فناوله إياها وكرر راجعا مقهقرا على عقبه إلى وساد ديباج مثقل بالذهب، جعل له هنالك ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير، فجلس عليه والبهر قد علاه، وأنهض خلفه من استدنى من قوامسه وأتباعه، فدنوا ممتثلين فعله فى تكرير الخنوع، وناولهم الخليفة يده فقبلوها وانصرفوا مقهقرين، فوقفوا على رأس ملكهم ووصل بوصولهم وليد بن خيزران قاضى النصارى بقرطبة فكان الترجمان عن الملك أردون ذلك اليوم، وأطرق الخليفة الحكم عن تكليم الملك أردون إثر قعوده [أمامه وقتا][1] كيما يفرخ روعه، فلما رأى أن قد خفض عليه افتتح تكليمه فقال: ليسرك إقبالك ويغبطك تأميلك، فلدينا لك من حسن رأينا ورحب قبولنا فوق ما قد طلبته.

فلما ترجم له [كلامه][1] إياه تطلق وجه أردون وانحط عن رتبته، فقبل البساط وقال: أنا عبد أمير المؤمنين مولاى المتورك على فضله، القاصد إلى

(١) التكملة من نفح الطيب ج١ ص ٣٩١.

مجده، المُحكِّم فى نفسه ورجاله، فحيث وضعنى من فضله، وعوضنى، من خدمته رجوت أن أتقدم فيه بنية صادقة ونصيحة خالصة.

فقال له الخليفة: أنت عندنا بمحل من يستحق حسن رأينا، وسينالك من تقديمنا لك وتفضيلنا إياك عن أهل ملتك ما يغبطك وتتعرف به فضل جنوحك إلينا، واستظلالك بظل سلطاننا.

فعاد أردون إلى السجود عند فهمه مقالة الخليفة، وابتهل داعيا وقال: إنَّ شانجة ابن عمى تقدم إلى الخليفة الماضى مستجيرا به منى، فكان من إعزازه إياه ما يكون من مثله من أعاظم الملوك وأكارم الخلفاء لمن قصدهم وأملهم، وكان قصده قصد مضطر قد شنأته رعيته، وأنكرت سيرته، واختارنى لمكانه من غير سعى منى - علم الله ذلك - ولا دعاء إليه، فخلعته وأخرجته عن ملكه مضطرا مضطهدا، فتطول عليه رحمه الله، بأن صرفه إلى ملكه، وقوى سلطانه وأعز نصره. ومع ذلك فلم يقم بفرض النعمة التى أسديت إليه وقصر فى أداء المفروض عليه وحقه وحق أمير المؤمنين مولاى من بعده، وأنا قد قصدت باب أمير المؤمنين لغير ضرورة من قرارة سلطانى، وموضع احتكامى، محكما له فى نفسى ورجالى ومعاقلى، ومن تحويه من رعيتى، فشتان ما بيننا من قوة الثقة ومطرح الهمة.

فقال الخليفة: قد سمعنا قولك، وفهمنا مغزاك، وسوف يظهر من إقراضنا إياك على الخصوصية فوق شأنه، ويترادف من إحساننا إليك به أضعاف ما كان من أبينا رضى الله عنه إلى نِدِّك، وإن كان له فضل التقدم بالجنوح إلينا، والقصد إلى سلطاننا، فليس ذلك مما يؤخرك عنه، ولا ينقصك مما أنلناه، وسنصرفك مغبوطا إلى بلدك، [ونشد أَوَاخِيَّ ملكك][1] ونُملّكك

(١) ما بين الحاصرتين من نفح الطيب ج١ ص ٣٩٢.

جميع من انحاش إليك من أمتك، ونعقد لك بذلك كتابا يكون بيدك، نقرر به حدّ ما بينك وبين ابن عمك، ونقبضه عن كل ما يصرفه من البلاد إلى يدك، وسيرادفك عليك من إفضالنا فوق ما احتسبته. والله على ما نقول وكيل.

فكرر أردون الخضوع، وأسهب فى الشكر، وقام للانصراف مقهقرا، لا يولى الخليفة ظهره، وقد تكنفه الحفدة من جلة الفتيان، فأخرجوه إلى المجلس الغربى فى السطح وقد علاه البُهْر، وأذهله الروع من هول ما باشره، وجلالة ما عاينه من فخامة الخليفة وبهاء العزة. فلما أن دخل المجلس ووقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خاليا منه، انحط ساجدا إعظاما له، ثم تقدم الفتيان به إلى البهو الذى بِجَوْفى هذا المجلس، فأجلسوه هناك على وساد مثقل بالذهب، وأقبل نحوه الحاجب جعفر، فلما بصر به قام إليه وخضع له وأومأ إلى تقبيل يده، فقبضها الحاجب عنه، وانحنى إليه فعانقه وجلس معه، فغبطه ووعده من إنجاز عدات الخليفة له بما ضاعف سروره؛ ثم أمر الحاجب جعفر فصبت عليه الخلع التى أمر بها الخليفة، وكانت دُرّاعة منسوجة بالذهب وبرنسا مثلها، له لوزة مفرغة من خالص التبر مرصعة بالجواهر والياقوت، ملأت عين العلج تجلة فخر ساجدًا وأعلن بالدعاء؛ ثم دعا الحاجب أصحابه رجلاً رجلاً فخلع عليهم على قدر استحقاقهم؛ فكمل جميع ذلك بحسب ما يصلح لهم. وخر جميعهم خاضعين شاكرين، ثم انطلق الملك [أردون][1] وأصحابه وقدم لركابه فى أول البهو الأوسط فرس من عتاق خيل الركاب، عليه سرج حلى، ولجام حلى مفرع، وانصرف مع ابن طملس إلى قصر الرصافة، مكان تضييفه وقد أعد له كل ما يصلح لمثله من الآلة والفرش والماعون، واستقر الملك أردون وأصحابه فيما لا كفاء له من سعة التضييف،

(١) ما بين الحاصرتين من نفح الطيب.

وإرغاد المعاش، واستشعر الناس من مسرة هذا اليوم وعزة الإسلام فيه، ما أفضوا فى التبجح به، والتحدث عنه أيامًا.

وكانت للخلفاء والشعراء بمجلس الخليفة فى هذا اليوم مقامات حسان وإنشادات لأشعار محكمة متان يطول القول فى اختيارها.

فمن ذلك قول عبد الملك بن سعيد المردى من قصيدة طويلة:

ملك الخليفة آية الإقبال ... وسعوده موصولة بنوال[1]

فالمسلمون بعزة وبرفعة ... والمشركون بذلة وسفال

ألقت بأيديها الأعاجم نحوه ... متوقعين لصولة الرئبال

هذا أميرهم أتاه آخذا ... منه أواصر ذمة وحبال

متواضعًا لجلاله متخشعًا ... متبرعًا لما يرع بقتال

سينال بالتأميل للملك الرضا ... عزًا يعم عداه بالإذلال

لا يوم أعظم للولاة مسرة ... وأشده غيظا على الأقيال

من يوم أردون الذى إقباله ... أمل المدى ونهاية الإقبال

ملك الأعاجم كلها ابن ملوكها ... والٍ نماه الأعاجم وال

إن كان جاء ضرورة فلقد أتى ... عن عز مملكة وطوع رجال

فالحمد لله المنيل إمامنا ... حظ الملوك بقدرة المتعالى

هو يوم حشر الناس إلاّ أنهم ... لم يسألوا فيه عن الأعمال

---

(١) نفح الطيب ج١ ص ٣٩٣.

أضحى الفضاء مفعما بجيوشه والأفق أقتم أغبر السربال

لا يهتدى السارى لليل قتامه إلاّ بضوء صوارم وعوالى

وكأن أجسام الكماة تسربلت مذ غبرت منه جسوم صلال

وكأنما العقبان عقبان الفلا منقصة لتخطف الضلال

وكأن منتصب القنا مهتزة أشطان نازحةٍ بعيدة جال

وكأنما خيل التجافيف اكتست نارًا توهجها بلا إشعال

وتتبع مثل هذه الأخبار لا آخر له؛ والله المستعان.

وكان القاضى منذر بن سعيد السابق ذكره، سمع بالأندلس من عبيد الله ابن يحيى بن يحيى ونظرائه[1]، ثم رحل حاجًا سنة ثمان وثلاث مائة، فسمع من عدة أعلام، منهم محمّد بن المنذر النيسابورى، سمع عليه كتابه المؤلف فى اختلاف العلماء، المسمى بالإشراف، وروى بمصر كتاب العين للخليل عن أبى العباس بن ولاد، وروى عن أبى جعفر بن النحاس؛ وكان متفننًا فى ضروب العلوم، وغلب عليه التفقه بمذهب أبى سليمان داود بن على الأصبهانى، المعروف بالظاهرى؛ فكان منذر بن سعيد يؤثر مذهبه، ويجمع كتبه، ويحتج لمقالته، ويأخذ به فى نفسه وذويه؛ فإذا جلس للحكومة قضى بمذهب الإمام مالك وأصحابه، بالذى استقر عليه العمل فى بلدهم، وحمل عليه السلطان أهل مملكته.

وله تواليف مفيدة؛ منها كتاب أحكام القرآن؛ والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك فى الفقه والكلام والرد على أهل المذاهب؛ وكان خطيبًا بليغًا عالمًا

(١) نفح الطيب ج٢ ص ٢١.

بالجدل، حاذقًا فيه، شديد العارضة حاضر الجواب، عتيده، ثابت الحجة ذا شارة عجيبة، ومنظر جميل، وخلق حميد، وتواضع لأهل الطلب، وانحطاط لهم، وإقبال عليهم؛ وكان مع وقاره التام فيه دعابة مستملحة، وله نوادر مستحسنة، لولا السآمة لجلبنا منها طرفًا. وكانت ولايته القضاء بقرطبة للناصر فى شهر ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وثلاث مائة، ولبث قاضيًا من ذلك التاريخ للخليفة الناصر إلى وفاته، ثم للخليفة الحكم المستنصر، إلى أن توفى رحمه الله، عقب ذى الحجة سنة خمس وخمسين وثلاث مئة، رحمه الله ورضى عنه. ودفن بمقبرة قريش بالربض الغربى من قرطبة، أعادها الله، جَوْفِيَّ مسجد السيدة الكبرى بقرب داره.

قال القاضى أبو الحسن: كان شيخنا القاضى أبو عبد الله بن عياش الخزرجى يستحسن من كلام القاضى منذر قوله فى التزكية:

اعلم أنَّ العدالة من أشد الأشياء تفاوتًا وتباينًا، ومتى حصلت ذلك عرفت حالة الشهود، لأن بين عدالة أصحاب النبى ﷺ وعدالة التابعيين رضى الله عنهم بَوْنًا عظيمًا وتباينًا شديدًا، وبين عدالة أهل زماننا وعدالة أولئك مثل ما بين السماء والأرض؛ وعدالة أهل زماننا على ما هى عليه بعيدة التباين أيضًا. والأصل فى هذا عندى، والله الموفق، أنَّ من كان الخير أغلب عليه من الشر، وكان متنزها عن الكبائر فواجب أن تعمل شهادته، فإنَّ الله تعالى قد أخبرنا بنص الكتاب أنَّ من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية، وقال فى موضع آخر: «فأولئك هم المفلحون»؛ فمن ثقلت موازين حسناته بشىء لم يدخل النار؛ ومن استوت حسناته وسيئاته لم يدخل الجنة فى زمرة الداخلين أولاً، وهم أصحاب الأعراف، فذلك عقوبة لهم، إذ تخلفوا عن أن

تزيد حسناتهم على سيئاتهم؛ فهذا حكم الله فى عباده. ونحن إنما كلفنا الحكم بالظاهر، فمن ظهر لنا أنَّ خيره أغلب عليه من شره حكمنا له بحكم الله فى عباده، ولم نطلب له علم الباطن، ولا كلفه محمّد ﷺ فقد ثبت عنه أنه قال «إنّما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلىّ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأحكم له على نحو مما أسمع». فأحكام الدنيا على ما ظهر، وأحكام الآخرة على ما بطن؛ لأن الله تعالى يعلم الظاهر والباطن، ونحن لا نعلم إلاّ الظاهر؛ ولأهل كل بلد قوم قد تراضى عليهم عامتهم، فبهم تنعقد منكاحهم وبيوعهم، وقد قدموهم فى المساجد ولجمعهم وأعيادهم، فالواجب على من استقصى على موضع أن يعمل شهادة أمثالهم وفقهائهم، وأصحاب صلواتهم، وإلاّ ضاعت حقوق ضعيفهم وقويهم، وبطلت أحكامه. ويجب عليه أن يسأل إن استراب فى بعضهم فى الظاهر والباطن عنهم، فمن لم يثبت عنده عليه اشتهار فى كبيرة، فهو على عدالة ظاهرة، حتى يثبت غير ذلك. انتهى.

قلت: تذكرت هنا ما رأيته بخط الأمام الحافظ سيدى أحمد الونشريشى رحمه الله على ظهر كتاب ابن الخطيب: «مثلى الطريقة فى ذم الوثيقة»، وقد مدينة فيه ابن الخطيب الباع فى ذم الموثقين، وذكر مثالبهم، ونص ما ألفيته بخط المذكور:

الحمد لله. جامع هذا الكلام المقيد هنا بأول ورقة منه، قد كد نفسه فى شىء لا يعنى الأفاضل، ولا يعود عليه فى القيامة ولا فى الدنيا بطائل، وأفنى طائفة من نفيس عمره فى التماس مساوئ طائفة، بهم تستباح الفروج، وتملك مشيدات الدور والبروج، وجعلهم أضحوكة لذوى الفتك والمجانة،

وانتزع عنهم جلباب الصدق والديانة، سامحه الله وغفر له. قال ذلك وخطه بيمنى يديه عبيد ربه أحمد بن يحيى بن محمّد بن على الونشريشى، خار الله سبحان له، انتهى.

ولنرجع إلى ما كنا فيه من أخبار سبتة فنقول:

كان أهل سبتة[1] فى غاية الذكاء والفطنة، والعلم والمعرفة؛ وقد حكى الشيخ النظار أبو إسحاق الشاطبى فى شرحه على ألفية ابن مالك، عن شيخه أبى عبد الله الفخار، عن بعض أهل سبتة، أنَّ الشيخ أبا عبد الله بن خميس التلمسانى لما ورد على سبتة بقصد الإقراء بها، اجتمع عليه عيون طلبتها؛ فألقوا عليه مسائل من غوامض باب الاشتغال، فحاد عن الجواب، بأن قال لهم: أنتم عندى كرجل واحد. يعنى أنَّ ما ألقوا عليه من المسائل إنّما تلقوها من رجل واحد، وهو ابن أبى الربيع؛ فكأنه إنّما يخاطب رجلاً واحدًا، ازدراء بهم. فاستقبله أصغر القوم سنا وعلما، بأن قال له: إن كنت بالمكان الذى تزعم، فأجبنى عن هذه المسائل، من باب معرفة علامات الإعراب، التى أذكرها لك؛ فإن أجبت فيها بالصواب، لم تحظ بذلك فى نفوسنا، لصغرها بالنظر إلى تعاطيك من الإدارك والتحصيل، وإنَّ أخطأت فيها لم يسعك هذا البلد، وهى عشرة:

الأولى: أنتم يا زيدون تغزون.

والثانية: أنتن يا هندات تغزون.

والثالثة: أنتم يا زيدون ويا هندات تغزون.

---

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٣٥٦.

والرابعة: أنتن يا هندات تخشين.

والخامسة: أنت يا هند تخشين.

والسادسة: أنت يا هند ترمين.

والسابعة: أنتن يا هندات ترمين.

والثامنة: أنتن يا هندات تمحون أو تمحين كيف تقول.

والتاسعة: أنت يا هند تمحين أو تمحون كيف تقول.

والعاشرة: أنتما تمحوان أو تمحيان، كيف تقول.

وهل هذه الأفعال كلها مبنية أو معربة؟ أو بعضها مبنى وبعضها معرب؟ وهل كلها على وزن واحد أم على أوزان مختلفة؟ علينا السؤال، وعليك التمييز، لنعلم الجواب. فبُهِت الشيخ وشغل المحل بأن قال: إنما يسأل عن هذا صغار الولدان. فقال له الفتى: فأنت دونهم إن لم تجب. فانزعج الشيخ وقال هذا سوء أدب، ونهض منصرفا، ولم يصبح إلاّ بمقالة، ومتوجها إلى غرناظة، فلم يزل بها مع الوزير ابن الحكيم، إلى أن مات. تغمده الله برحمته. انتهى.

وأورد هذه الحكاية أيضًا عالم الدنيا، سيدى أبو عبد الله بن مرزوق[1]، فى شرحه على الألفية لابن مالك، وهو شرح متسع جدًا، وقفت منه على بعضه بتلمسان، وكان آخر السفر الأول اسم الإشارة، وذلك السفر أعظم جرما من جميع شرح المرادى؛ ونص [محل][2] الحاجة منه:

وقد حكى أنَّ بعض طلبة سبتة أورد على أبى عبد الله بن خميس عشر

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٣٥٧.

(٢) التكملة من نفح الطيب.

مسائل من هذا النوع، وهى: أنتم يـا زيدون تغزون؛ وأنتن يا هندات تغزون؛ وأنتم يا زيدون ويا هندات تغـزون، وأنتن يا هندات تخـشـين؛ وأنت يا هند تخشين؛ وأنت يا هند ترمين، وأنتن يا هنادت ترمين، وأنتن يا هندات تمحون أو تمحين كـيف تقول. وأنت يا هند تَمْـحِينَ أو تَمْحَـيْن كيف تقول؛ وأنتـما تمحوان أو تمحيـان، على لغة من قال محوت كـيف تقول؟ وهل هذه الأمثلة كلها مبنـية أو معربة أو مخـتلفة؟ وهل وزنها واحد أو مخـتلف؟ قالوا: ولم يجب بشيء. قلت: فلعله استسهل أمرها.

فأما المثـال الأول فمعرب، ووزنه تَفْعُـون، إذ أصله تَغْزُوُون كتنظرون، فاسـتثـقلت ضمـة الواو، التى هى لام، فحـذفت، ثم حذفت الـواو أيضًا، لالتقـائها ساكنة مع واو الضـمير، وكـانت أولى بالحذف، لأن واو الضمـير فاعل، ولغير ذلك مما تقدم بعضه.

وأما الثانى فمبنى، ووزنه تَفْعُلْن، كَتَخْرُجْن.

وأما الثالث فكالأول إعرابًا ووزنًا، لأن فيه تغليب المذكر على المؤنث.

وأمـا الرابع فمـبنى، ووزنه تَفْعَلْـن، مثل تَفْـرَحْن لأنه لما احتـيج إلى تسكين آخر الفعل، لاستناده إلى نون جمـاعة النسوة، ردت الياء إلى أصلها، لأنهـا إنّما قلبت ألفـا لتحـركهـا وانفتـاح ما قبـلها، والآن ذهبت حـركتـها لاستحقاقها السكون.

وأما الخـامس فمعـرب، ووزنه تَفْعَـيْن، وأصله تَخْشِيـن، كتَفْـرَحِين، فقبلت الياء ألفًا، لتحركها وانفتاح ما قبلها، ثم حذفت لالتقائها ساكنة مع ياء الضمير، وتركت فتحة الشين دالة على الألف.

وأما السادس فمعرب، ووزنه تَفْعِين. وأصله تَرْمِيينَ، كتضربين، حذفت كسرة الياء لاستثقالها، ثم حذفت الياء لاجتماعها ساكنة مع ياء الضمير.

وأما السابع فمبنى، ووزنه تفعلن كتضربن.

وأما الثامن والتاسع، فمضارع مَحَى ورد بالأوزان الثلاثة، فمن قال يمحو [قال فى المضارع من جماعة النسوة: تمحون، مثله من غزا ناء ووزنا، ومن قال يمحى][1] قال فيه: تمحين كترمين، بناء ووزنا. ومن قال يمحى قال فيه تَمْحَين كَتَخْشَين، بناء ووزنا. ويقال فى المضارع الواحدة على اللغة الأولى تمحين كتدعين: إعرابا ووزنا وتصريفا. وقد تقدم فى كلام المصنف. وعلى الثانية، كما يقال لها من رمى إعرابًا ووزنا وتصريفًا. وعلى الثالثة كما يقال لها من تخشى أيضًا، وقد تقدما.

وليس ما وقع فى السؤال كما نقل خط بعض الشارحين أنّه يقال فيها «تَمْحَوْن» كَتَفْرَحْن بشىء.

وأمر التثنية ظاهر. انتهى بحروفه.

قلت: وقد جزم واحد بأن ابن خميس لا يجهل مثل هذه المبادئ، إذ هو من أكابر الأعلام العارفين بالنحو واللغة وغيرهما من أنواع العلوم؛ وقد نقل بعض من له خبرة بأحواله أنّه كان يحسن علم السيمياء والله اعلم.

وهو محمّد بن عمر بن محمّد بن محمّد بن عمر بن محمّد الحجرى بفتح الحاء وسكون الميم، الرعينى، نسبة إلى حجر ذى رعين. وهو من أهل تلمسان، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن خميس.

(١) ما بين الحاصرتين من نفح الطيب.

قال ابن الخطيب فى «عائد الصلة»[1]: كان رحمة الله نسيج وحده زهدا وانقباضًا وبأوا وهمة، حسن الشيبة، جميل الهيئة، سليم الصدر، قليل التصنع، بعيدًا عن الرياء والهوى، عاملا على السياحة والعزلة، عارفا بالمعارف القديمة، مضطلعا بتفاريق النِّحَل، قائما على العربية والأصلين، طبقة الوقت فى الشعر، وفحل الأوان فى المطول، أقدر الناس على اجتلاب الغريب.

ثم ذكر ابن الخطيب من أحواله جملة، إلى أن قال: وبلغ الوزير أبا عبد الله ابن الحكيم أنّه يروم السفر، فشق ذلك عليه، وكلفه تحريك الحديث بحضرته، وجرى ذلك. فقال الشيخ: أنا كالدم بطبعى أتحرك فى كل ربيع. انتهى.

وقال ابن خاتمة فى حقه، بعد أن وصفه بالشاعر المجيد: إنّه رحل من تلمسان بلده إلى سبتة، فأقام بها مدة، ومدح رؤساءها من بنى العزفى، ثم أجاز البحر إلى الأندلس، فاحتل بحضرة غرناطة فى أواخر سنة ثلاث وسبع مائة، فى جوار الوزير أبى عبد الله بن الحكيم، فتقارضا حلل المجد، وتباريا فى الرفد والحمد، فأدنى له ذو الوزارتين أخلاف بره وإكرامه، وخلع عليه ابن خميس أثواب نثره ونظامه، فله فيه القصائد التى حليت بها لبات الآفاق، وتنفست عنها صدور الرفاق.

وكان رحمه الله من فحول الشعراء، وأعلام البلغاء، يصرف العويص، ويرتكب مستصعبات القوافى، ويطير فى القريض مطار ذوى القوادم الباسقة والخوافى، حافظا لأشعار العرب وأخبارها، له مشاركة فى العقليات،

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦٠. وفى الأصل: «أدبا» مكان «بأوا» وهى رواية النفح.

واستشراف على الطلب؛ وعقد لإقراء العربية بحضرة غرناطة، وكان ما ينتحله من العلم فوق ما يحصله. ومال بأخرة إلى التصوف والتجوال، والتحلى بحسن السمت، وعدم الاسترسال، بعد طى بساط ما فرط له فى بلده من الأحوال، وكان صنع اليدين. حدثنى بعض من لقيه من الشيوخ أنّه صنع قدحا من الشمع على أبدع ما يكون، فى شكله، ولطافة جوهره، وإتقان صنعته، وكتب بدائرة شفته:

وما كنت إلا زهرة فى حديقةٍ تبسم عنى ضاحكات الكمائم[1]

فقُلِّبت من طور لطور فهأنا أقبل أفواه الملوك الأعاظم

وأهداه خدمة للوزير أبى عبد الله بن الحكيم.

وأنشدنا شيخنا أبو البركات ابن الحاج[2] وحكى لنا، قال:

أنشدنى أبو عبد الله بن خميس وحكى لى، قال: لما وقفت على الجزء الذى ألفه ابن سبعين، يعنى أبا محمّد عبد الحق بن أحمد بن إبراهيم بن نصر، وهو الذى سماه بالفقيرية، كتبت على ظهره:

الفقر عندى لفظ دق معناه من رامه من ذوى الغايات عناه[3]

كم من غبىّ بعيد عن تصوره أراد كشف معماه فعماه

وأنشدنا شيخنا الأستاذ أبو عثمان بن ليون غير مرة[4]، قال: سمعت أبا عبد الله بن خميس ينشد، وكان يحسب أنهما له، ويقال إنهما لابن الرومى:

---

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦٠.

(٢) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦٠.

(٣) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦٠.

(٤) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦١.

رب قـــــــوم فـى مـنـازلهـم عـــررٍ صـــاروا بـهـــا غـــررا

ســـتـــر الإحـــســـان مـــا بهم ســـتـــرى لو زال مـــا ســـتـــرا

ثم قال ابن خاتمة بعد كلام[1]: وقد جمع شعره ودونه صاحبنا القاضى أبو عبد الله بن إبراهيم الحضرمى فى جـزء سماه: «الدر النفيس من شعر ابن خميس»، وعرف به صدر الجزء. وقد نقلت منه هنا:

وقدم أبو عبد الله بن خمـيس ألمرية سنة ست وسبع مائة، فنزل بها فى كنف القائد الحاضـر بها حينئذ، أبى الحسن بن كمـاشة، من خدام الوزير أبى عبد الله ابن الحكيم، فوسع له فى الإيثار والمبرة، وبسط له وجه الكرامة طلق الأسرة؛ وبها قال فى مدح الوزير أبى عبد الله بن الحكيم قصيدته التى أولها:

العـــشى تعـــيـــا والنـوابغ عن شـكر أنعـــمك الـســـوابغ

ووجه بها إليه من ألمرية. ومنها:

ودســـائع ابن كـــمـــاشـــة مـع كـل بـازغـــــــة وبـازغ

تأتـى بما تـهـــوى الـنغـــا نع من شـــهـيـات اللـغـالغ

ويقال إن الوزير أبا عبـد الله بن الحكيم اقترح عليه أن ينظم له قـصيدة هائية فابتدأ منها مطلعها وهو قوله:

لمن المـنازل لا تجـــيب صـــداها مـحـيت مـعـالمهـا وصم صـدها

وذلك فى أواخر شهر رمضان من سنة ثمان وسبع مئة. ثم لم يزد على ذلك إلى أن توفى، فكان آخر ما صدر عنه من الشعر، وقد أشار معناه، وقد آذن أولاه بحضور أخـراه، فكانت وفاته بحضـرة غرناطة قتيـلا، ضحوة يوم

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦١.

الفطر، مستهل شوال سنة ثمان وسبع مائة وهو ابن نيف وستين سنة، وذلك يوم مقتل مخدومه الوزير أبى عبد الله بن الحكيم، أصابه قاتله لحقده على مخدومه. ويقال إنه لما هم به قاتله قال له: أنا دخيل رسول الله ﷺ فلم يلتفت إليه وجعل يجهز عليه فقال له: لم لم تقبل الدخيل بينى وبينك؟ فكان آخر ما سمع منه: ﴿... أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ...(٢٨)﴾ [غافر] ثم إنّه استفاض بذلك من حال القاتل أنّه هلك قبل أن يكمل سنة من حين قتله من فالج شديد أصابه، فكان يصح ويستغيث: ابن خميس يطلبنى ابن خميس يعذبنى ابن خميس يقتلنى. وما زال الأمر يشتد به حتى قضى نحبه على تلك الحال.

نعوذ بالله من المورطات، ومواقعات العثرات. انتهى كلام ابن خاتمة.

وحكى غيره أنَّ تلك القصيدة نظمه ليهنئ بها ابن الحكيم فى ذلك العيد الذى قتل فيه، فلم يقدر على زيادة شىء، فلما قتل كتب بعضهم بعد قوله:

* لمن المنازل لا تجيب هواها *

لابن الحكيم.

ونقل غير واحد فى شأن قاتله خلاف ما حكاه ابن خاتمة. والله أعلم.

ومن مشهور نظمه رحمه الله قصيدته التى أولها:

مشوق زار ربعك يا أماما ... محا آثار دمنتها الشآما

تتبع ريقه الطل ارتشافا ... فلا نفعت ولا نقعت أواما

وهى طويلة ولكنها من غرر القصائد يمدح بها أبا سعيد بن عامر ويذكر الوشحة الواقعة بينه وبين أبى بكر بن خطاب.

ومن بديع شعره قوله مطلع قصيدة[1]:

تراجع من دنياك ما أنت تارك ... ونسألها العتبى وها هى فارك

تؤمل بعد الترك رجع ودادها ... وشر وداد ما تود التوائك

حلالك منها ما حلالك فى الصبا ... فأنت على حلوائه متهالك

تظاهر بالسلوان عنها تجملا ... فقلبك محزون وثغرك ضاحك

تنزهت عنها نخوة لا زهادة ... وشعر عذارى أسود اللون حالك

وهى من القصائد الطنانة، وتركتها لطولها؛ وفى آخرها يقول:

فلا تَدْعوَنْ غيرى لدفع ملمة ... إذا ما دهى من حادث الدهر داهك

فما إن لذاك الصوت غيرى سامع ... وما إن لبيت المجد بعدى سامك

يغص ويشجى نهشل ومجاشع ... بما أورثتنى حمير والسكاسك

تفارقنى الروح التى لست غيرها ... وطيب ثنائى لاصق بى صائك

وماذا عسى ترجو لداتى وأرتجى ... وقد شمطت منى اللحى والأفانك

يعود لنا شرخ الشباب الذى مضى ... إذا عاد للدنيا عقيل ومالك

ومما اشتهر من نظمه قوله[2]:

أرق عينى بارق من أثال ... كأنه فى جنح ليلى ذبال

أثار شوقا من صميم الحشى ... وعبرتى فى صحن خدى أسال

---

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦٢.

(٢) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦٢.

(٣) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦٣.

حكى فـؤادى قلقـا واشتـعـال ... وجـفن عـينى أرقـا وانهـمـال

جـوانـح تلفـح نيـرانـهـا ... وأدمع تـنهل مـثل الـعـزال

قـولوا وشـاة الحب مـا شـئـتم ... مـا لذة الحب سـوى أن يقـال

أعـذر لـوامى ولا عـذر لى ... فـزلة الـعـالم مـا إن تـقـال

قم نـطرد الهـم بمشـمـولة ... تقـصـر اللـيل إذا الليـل طال

وعـاطهـا صـفـراء ذمـيـة ... تمنعـهـا الـذمـة من أن تـنال

كـالمسك ريحـا واللـمى مطعـمـا ... والتـبـر لونا والهـوا فى اعـتـدال

عـتـقـهـا فى الدن خـمـارها ... والبكر لا تعـرف غـيـر الحـجـال

لا تثـقب المصـبـاح لا واسـقنى ... على سنى الـبـرق وضـوء الهـلال

فـالعـيـش نوم والردى يقـظة ... والمرء مـا بينهـمـا كـالخـيـال

خـذها على تنعـيم مـسطارها ... بين خـوابيـهـا وبـين الدوال

فى روضـة باكـر وسـمـيـهـا ... أخـمـل دارين وأنسـى أوال

كـأن فـأر المسـك مـفـتـوقـة ... فـيهـا إذا هبت الصـبـا أو شمـال

من كف سـاجى الـطرف ألحـاظه ... مـفـوقـات أبـدًا للنضـال

من عـذارى والكل لى عـاذر ... من حـسن الوجـه قـبيح الفـعـال

من خـلبـى الوعـد كَـذَّابِه ... لَيَّـانَ لا يعـرف غـيـر المطال

كـأنـه الدهـر وأى امـرئ ... يبـقى على الـدهر إذا الدهر حـال

أمـا ترانى آخـذا ناقـضـا ... عليـه مـا سـوغنى من مـحـال

ولم أكن قط له عائبا ... كمثل ما عابته فبلى رجال

يأبى ثراء المال علمى وهل ... يجمع الضدان علم ومال

وتأنف الأرض مقامى بها ... حتى تهادانى ظهور الرحال

لولا بنى زيان ما لَذّ لى الـ ... ـعيش ولا هانت على الليال

هم خوفوا الدهر وهم خففوا ... على بنى الدنيا خطاه الثقال

ألفيت من عامرهم سيدا ... غمر رداء الحمد جم النوال

وكعبة للجود منصوبة ... يسعى إليها الناس فى كل حال

خذها أبا زيان من شاعر ... مستعذب النزعة عذب المقال

يلتقط الألفاظ لقط النوى[1] ... وينظم الآلاء نظم الآل

مجاريا مهيار فى قوله ... «ما كنت لولا طمعى فى الخيال»

ومطلع قصيدة مهيار التى عارضها ابن خميس هو قوله[2]:

ما كنت لولا طمعى فى الخيال ... أنشد ليلى بين طول الليال

وربما يهجس فى خاطر من يرى وصف هؤلاء الأئمة للخمر وغيرها، أنَّ ذلك منهم على حقيقته، حاشاهم من ذلك، وإنما مقصدهم بذلك خلاف ما يتوهم، فلا يساء بهم الظن، فإن العذر لهم فى مثل ذلك بَيِّن، واعتقاد براءتهم من هذا الشين مُتَعَيّن، ويرحم الله شيخ الشيوخ ولى الله الربانى الشهير البركات سيدى أبا مدين شعيبا أفاض الله علينا من أنواره إذ يقول على ما نسبه له بعض الأئمة:

(١) رواية الأصل: «يلتفظ» «لفظ» بالفاء والظاء والمثبت رواية النفح ٥/ ٣٦٤.

(٢) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦٤ - ٣٦٥.

بكت السحاب فأضحكت لبكائها زهر الرياض وفاضت الأنهار[1]

وقد أقبلت شمس النهار بحلة خضراء وفى أسرارها أسرار

وأتى الربيع بخيله وجنوده فتمتعت فى حسنه الأبصار

والورد نادى بالورود إلى الجنى فتسابق الأطيار والأشجار

والكأس ترقص والعقار تشعشعت والجو يضحك والحبيب يزار

والعود للغيد الحسان مجاوب والطار أخفى صوته المزمار

لا تحسبوا الزمر الحرام مرادنا مزمارنا التسبيح والأذكار

وشرابنا من لطفه وغناؤنا نعم الحبيب الواحد القهار

والعود عادات الجميل وكاسنا كاس الكياسة والعقار وقار

فتألفوا وتطيبوا واستغنموا قبل الممات فدهركم غدار

والله أرحم بالفقير إذا أتى من والديه فإنه غفار

ثم الصلاة على الشفيع المصلى ما رنمت بلغاتها الأطيار

وقد تذكرت بلامية ابن خميس المذكورة قصيدة على رويها ووزنها أولها قوله:

ما حال من فارق ذاك الجمال وذاق طعم الهجر بعد الوصال

وهى من نظم الشيخ العارف الصالح سيدى إبراهيم التازى رضى الله عنه رأيت أن أذكرها هنا كفارة لما يتوهمه السامع فى لامية ابن خميس، وقد كنت رأيت بتلمسان تخميسا لبعض الأكابر على قصيدة سيدى إبراهيم هذه،

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٤٣.

وأنشدته الشيخ مولانا العم شيخ الإسلام، سيدى سعيد بن أحمد المَقَّرِىّ رضى الله عنه فانفعل لذلك غاية واهتز وهأنا أذكر القصيدة ضمن التخميس وهو:

بدت كـغـصن ناعم فى اعـتـدال

وأبدلـت وصلـى بصـــــاد ودال

قلت كـصب عـاشق حـيث قـال

مـا حـال من فـارق ذاك الجـمـال وذاق طعم الهـجـر بعـد الوصـال

صب صـبا من وجـد لحظ الرشـا

من حـــبـــه عن لبـــه يـنتـــشى

وســـره بدمـــعـى قـــد فـــشـــا

والعـــــقل منه ذاب والحـــــشى ملتـهب والجـسـم يحكى الخـيـال

شـأنى بهـا مـــا دمت فى رقـهـا

راق ولا رغـبـــة فى عـتـقـــهـا

دمت لهـا عـبـــدا ومن حـقـهـا

أبيت أرعى الـنجم فى أفـــقـهـــا ولـيـل أهل الحـب رحـب طـوال

جـاء بهـا التنصـيص فى جـملتى

أقـضى بـهـا فـرضى وهـى ملتى

نأت بصـبرى صحت واخـجلتنى

والدمـع كـــالمدرار مـن مـــقلـتى يجـــرى على الوجنة يا للـرجـال

مـا عـمـرت لـى بالهـوى راحـة

من بعـــدها ولا خلـت سـاحـــة

من حـسـنهـا إذا هى وضـــاحـة

وليـس لى عـــيش ولا راحـــة والحال يغـنى ذا الحجا عـن سؤال

الوصل قـــد أبدى لنا حـــسنه

والبـــعـــد قـد أبـدى لنا شـــينه

قـــولوا لمن ليـل الهـــوى جَـنَّهُ

يـا قـــــــبـح الله النـوى إنـه قـتل بلا سـيف وداء عـضـــال

إلفى مـــذ حل بقـلبى قـــضى

أعـــــاد الله لنـا بالـرضـــــا

بطـالع الســـعـــد ونور أضـــا

ويا رعـى الله زمـــانا مـــضى بـالأنس فـى وارف تلـك الظـلال

لله أطلال بـهـــا خـــيـــمت

فكم بـهـــا من أمـــة أحـــرمت

ويا رعى الله بـهـا مـــا حـــمت

ظلال تيـــمـــاء الـتى تيـــمت قلبى وخلـت مـهـجـتى فى نكال

نلت لـذيذ الوصـــال فى تربهـــا

لو دام مـا غـــيـبت عن قـــربهـا

فكيف لا أعلن من حبها

آها لها من لى بأنس بها خوف الوجى ما بين تلك الجبال

تلك الربوع فاز من حلها

وعقدة الإبعاد قد حلها

من لى بقرب أجتنى وصلها

ألزمها أبث أمرى لها أنعم الطرف بذاك الجمال

ما فاز إلاّ من غدا خلها

ومن أتاها قاصدا أهلها

يا عاشقين استعطفوا دلها

لله ما أحسن خالاً لها تقبيله المحظور عين الحلال

نفسى فدا من حل فى ركبها

ومرغ الخدين فى تربها

ونال ظل الأمن فى حزبها

وما ألذ العيش فى قربها فى ريه بذل العطا والنوال

يأهل ذاك المنصب المولوى

عن حبكم قلبى ما يرعوى

لأنى من مائكم أرتوى

يا سادتى يا صفوتى يا ذوى برى وشكرى يا كرام الفعال

كم بت ليلى بكم ساهرا

سامرت فيه كوكبا زاهرا

وصرت من شوقى لكم ذاكرا

كان سرورى بكم وافرا وبدر سعدى مشرقا فى كمال

فهأنا اليوم أعانى العنى

وظل أمنى كان فى المنحنى

وبدر سعدى ناظم شملنا

فانخسف البدر وراح الهنا ما كان ذا يخطر منى ببال

يا من بدا قلبى بهم مغرما

من أجل خود حسنها قد سما

من لى بها أرشف ذاك اللمى

يا جيرة الحى وأهل الحمى أنتم منى القلب على كل حال

كانت بكم فى الهوى نزهة

فصرت أبكى إذ بدت وحشة

وهأنا لم ترق لى دمعة

وليس بى صبر ولا سلوة عنكم ولو شط المدى واستطال

يا من بهم قلبى غدا مولعا

وحق من طاف ومن قد سعى

مـا العـبـد إلاّ صـادق مـا ادعى

فارعـوا ذمامى واجهـدوا فى الدعا للمـدنف المضنى عسى ذو الجـلال

مـــتى أرى ركـبى بـهم قـافـــلا

وربعـكم أضـــــــحـى به آهـلا

فـــالله أرجـــو داعـيًـــا ســـائلا

أن يجـمع الشـمـل بكم عـاجـلا فى ذلك المـغنى العـــديم المثـــال

ومن نظم ابن خميس التلمسانى المذكور قوله:

نظرت إلـيك بمثل عـــينى جـــؤذر وتبســمت عن مثل سـمطى جوهر

عن ناصعٍ كـالـدر أو كـالبـرق أو كـالطلع أو كـالأقـحوان مـؤشـر

تجـــرى علـيـــه من لماها نـطفـــة بل خـــمـرة لكنهـــا لم تعـــصـر

لو لم يكن خـمرًا سـلافًـا ريقهـا تزرى وتـلعب بـالنـهى لم تحـظر

وكذلك ساجى جـفنها لو لم يكن فـيـــه مـهنـد لحظهـا لم يـحـذر

لو عجت طرفك فى حديقة خدها وأمنت سـطوة صـــدها المتـنمـــر

لرتعت مـن ذاك الحـمى فـى جنةٍ وكـرعت من ذاك اللمى فى كـوثر

طرقـتـك وهنًا والنجـوم كـــأنهـا حـصـبـاء در فى بسـاط أخـضـر

والركب بين مـصـعـدٍ ومـصـوبٍ والنـوم بين مـــسكـن ومنفـــر

بيضـا إذا اعتكرت ذوائب شـعرها سـفرت فـأزرت بالصـبح المسفـر

سـرحت غلائلهـا فـقلت سبـيكة من فـضـة أو دمـيـــة من مـرمـر

منحتك ما منعتك يقظانًا فلم تخلف مواعيدها ولم تتغير
وكأنما خاف بغاة وشاتها فأتتك من أردافها فى عسكر
ويجزع ذاك المنحنى إدمانةٌ تعطو فتسطو بالهزير القسور
وتحية جاءتك فى طى الصبا أزكى وأعطر من شمم العنبر
جرت على واديك فضل ردائها فعرفت فيها عرف ذاك الإذخر
هاجت بلابل نازحٍ عن إلفه متشوقٍ ذاكى الحشى متسعر
وإذا نسيت ليالى العهد التى سلفت لنا فتذكريها تذكرى
رحنا تغنينا ونرشف ثغرها والشمس تنظر مثل عين الأخزر
والروض بين مفضض ومعسجدٍ والجو بين ممسك ومعصفر

وقد تذكرت بهذه القصيدة قول الأديب ابن مرج الكحل[1]:

عرج بمنعرج الكثيب الأعفر بين الفرات وبين شط الكوثرِ
ولتغتبقها قهوةً ذهبيةً من راحَتَىْ أحوى المراشف أحور
وعشيةٍ قد كنت أرقب وقتها سمحت بها الأيام بعد تعذر
نلنا بها آمالنا فى روضةٍ تهدى لناشقها شميم العنبر
والدهر من قدم يسفه رأيه فيما مضى منه بغير تكدر
والورق تشدو والأراكة تنثنى والشمس ترفل فى قميص أصفر
والروض بين مفضضٍ ومعسجدٍ والزهر بين مدهم ومدنر

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٥١.

والنهـــر مـرقـوم الأبـاطح والربا بمصندل مـن زهره ومـعـصـــفـر
وكـــأنه وكـــأن خـــضـــرة شطه سـيف يسل على بسـاط أخـضـر
وكـــأنما ذاك الحـــبـــاب فـــرنده مهـما طفـا فى صفـحه كـالجوهرِ
وكـأنـه وجـهـاته مـــحـفـــوفـة بالآس والنعـــمـان خـد مـــعـذرِ
نهـــر يهـيم بـحـسنه مـن لم يهم ويجـيد فيـه الشعـر من لم يشـعرِ
ما اصفر وجه الشمس عند غروبها إلاّ لفـــرقـــة حـــسن ذاك المـنظرِ

وما أحسن قول ابن الكحل المذكور[1]:

رأوا بالجـزع برقًـا فـاسـتـهـامـوا ونام الـعـــاذلون ولم يـنامـــوا
وعندى من مـراشـــفـهـا حـديث يخـــبـــر أنَّ ريقـــهـــا مـــدام
وفى أجـــفـانـهـا السـكرى دليل ومـــا ذقـنا ولا زعم الهـــمـــامُ
تعـــالى الله مـا أجـرى دمـــوعى إذا عـــرضـت لمقلتى الخـــيـــامُ
وأشـــجـــانى إذا لاحـت بروق وأطربـنى إذا غنـى الحـــمـــامُ

وكان السلطان أبو عنان المرينى رحمه الله كـثير الاعتناء بنظم الشيخ أبى عبد الله بـن خميس وحفظه وروايتـه. قال رحمه الله: أنشـدنى بلفظه الشيخ الفقيـه القاضى المحدث، الراوية العالم المدرس، خطيب حـضرتنا العلية، أبو عبد الله محمّد بن الشيخ الأجل، الصالح المبارك الراوية، المرحوم أبى الحسن ابن عبد الرزاق وذلك بقصر المصارة يمنه الله فى يوم الاثنين خامس عشر من شهر المحرم المبارك مـفتتح عام خمسة وخمسين وسبع مـئة؛ قال أنشدنا شيخ

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٥٣.

الأدباء، وفحل الشعـراء، أبو عبد الله محمّـد بن عمر بن محمّـد بن خميس الحميرى، ثم الحجرى: حجر ذى رعين، لنفسه، رحمه الله تعالى:

أنبت ولكـن بعـد طول عـتـاب ... وفـرط لجـاجٍ ضـاع فيـه شـبـابى
ومـا زلت والعليـا تُعَنِّى غـريمهـا ... أعلل نـفـسى دائـمًـا بمتـابِ
وهيهات من بعد الشـباب وشرخه ... يلذ طعـامى أو يسـوغ شـرابى
خـدعت بهـذا العـيش قـبل بلائه ... كمـا يخدع الصـادى بلمع سرابِ
تقـول هو الشهـد المشـور جهـالةً ... ومـا هو إلاّ السم شـيب بصـابِ
ومـا صحب الدنيـا كـبكرٍ وتغلبٍ ... ولا ككليـب ريء فـحل ضـرابِ
إذا كـعت الأبطال عنهـا تقـدمـوا ... أعـاريب غـراء فى متـون عـرابِ
وإن ناب خطب أو تفـاقم معـضل ... تلقـاه منـهم كل أصـيـد نابِ
تراءت لجـالسٍ مـخـيلة فـرصـةٍ ... تأتت لـه فى جـيـئـة وذهابِ
فـجـاء بهـا شوهاء تنـذر قومـهـا ... بتـشـيـيـد أرجـامٍ وهدم قـبـابِ
وكان رغاء السـقب فى قوم صالح ... حـديثًـا فـأنسـاه رغـاء سـرابِ
فـما تسـمع الآذان فى عرصـاتهم ... سـوى نوح ثكلى أو نعيب غـرابِ
وسل عروة الرحال عن صدق بأسه ... وعن بيـته فى جـعـفر بن كـلابِ
وكـانت على الأمـلاك منه وفـادةٌ ... إذا آب منهـا آب خـيـر مـآبِ
يجـير على الحـيين قـيس وخندف ... بفـضل يسـار أو بـفـصل خطابِ

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦٦.

زعـامـــة مـرجـو النـوال مـؤمل ... وعزمـة مسـموع الدعـاء مجـيبِ

فـمـر يزجـيـهـا حـواسـر ظلعًـا ... بما حـــملوهـا من منى ورغـــابِ

إلى فـــدكٍ والموت أقـــرب غـــايةً ... وهذا المنـى يأتى بكل عـــجـــابِ

تبرض صفو العيش حـتى استشفه ... فـداف له البـرض قشب حـبـابِ

فـأصـبح فى تلك المعـاطف نهـزةً ... لنهـب ضـــبـــاع أو لنـهش ذئابِ

ومـا سـمـه عند الـنضـال بأهزعٍ ... ولا سـيـــفـه عند المصـــاع بنابى

ولكنهـــا الدنيـا تكر علـى الفـتى ... وإن كـان منهـا فـى أعـز نصـابِ

وعـــادتهـــا ألا تـوسط عنـدها ... فـــإمـا ســـمـاء أو تخـــوم ترابِ

فـلا ترج من دنيـاك ودًا وإن يكن ... فـمـا هو إلاّ مـثل ظل سـحـابِ

ومثال الحزم كل الحـزم إلاّ اجتنابها ... فأشـقى الورى من تصطفى وتحابى

أبيت لهـا ما دام شخـصى أن ترى ... تمر بـبـــابـى أو تطـور جنـابى

فكم عطـلت من أربع ومـــلاعبٍ ... وكم فَـرَّقت من أسـرةٍ وصحـابِ

وكم عـفـرت حـــاسـر ومـدجج ... وكم أثكلت من مـعصـر وكعـابِ

إليك بنى الدنا نصـيـحـة مشـفق ... عليكـم بصـيـرٍ بالأمـــور نقـابِ

طويل مـراس الدهر جـزلٍ مماحك ... عريض مـجال الهم حـلس ركابِ

تأتت لـه الأوهام أدهم ســـابقًـــا ... وغـصت به الأيام أشـــهب كـابى

ولا تحسبـوا أنى على الدهر عاتب ... فـأعظم مـا بى مـنه أيسـر مـابى

ومـا أسـفى إلاّ شـبـاب خلعـتـه ... وشـيب أبى إلاّ نصـول خـضـابِ

وعـمر مـضى لم أحل منه بطائل سـوى ما حـلا من لوعة وتصـابى
ليـالى شـيطانـى على الغى قـادرٌ وأعـذب مـا عندى أليـم عـذابِ
عكسنا قـضايانا على حكم عـادنا ومـا عكسـهـا عند النهى بصـوابِ
على المصطفى المختـار أزكى تحينى فـتلك التى أعـتـد يوم حـسـابى
فـتلك عـتـادى أو ثناء أصـوغـه كـدر سـحـاب أو كـدر سـخـابِ

ومن مشهور نظم ابن خميس رحمه الله تعالى[1]:

عـجبًـا لهـا أيذوق طعم وصالهـا من ليس يـأمل أن يمـر ببـابهـا
وأنا الفـقـيـر إلى تعلة سـاعـةٍ منهـا وتمنعنى زكـاة جـمـالـهـا
كم ذاد عن عـينى الكرى مـتـألق يبـدو ويخـفى فى خـفى مطالهـا
يسـمـو له بدر الدجى مـتضـاءلا كـتـضائل الحـسناء فـى أسمـالهـا
وأين السـبـيل يجىء يقـبس نارها ليـلا فـتـمنحنـى عـقـيلة مـالهـا
يعـتادنـى فى النوم طيف خـيالهـا فـتـصـيـبنى ألحـاظها بنـبـالهـا
كم لـيلـةٍ جـاءت بـه فكـأنما زفت علـى ذكـاء وقت زوالـهـا
أسـرى فعطلـها وعطل شـهـبهـا بأبى شـذا المعطار من مـعطارها
وسـواد طرتـه كـجنح ظلامـهـا وبيـاض غـرته كـضـوء هـلالهـا
دعنـى أشم بالوهـم أدنى لمعـةٍ من ثغـرها وأشم مـسكة خـالهـا
مـا راد طرفى حـقـيـقـة خـدها إلاّ لفـتـنتـه بحـسـن دلالهـا

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦٨.

أنسيب شعرى رق مثل نسيمها ... فشمول راحك مثل ريح شمالها

وأنقل أحاديث الهوى وأشرح غريـ ... ـب لغاتها واذكر ثقات رجالها

وإذا مررت برامةٍ فتوق من ... أطلائها وتمس فى أطلالها

وانصب لِغُزِّلِهَا حِبالة قانصٍ ... ودع الكرى شَرَكًا لصيد غزالها

وأسل جداولها بفيض دموعها ... وانضح جوانحا بفضل سجالها

أنا من بقية معشر عركتهم ... هذى النوى عرك الرحى بثفاله

أكرم بها فئة أريق نجيعها ... بغيا فراق العين حسن مآلها

حلت مدامة وصلها وحلت لهم ... فإن انتشوا فبحلوها وحلالها

بلغت بهرمس غاية ما نالها ... أحد وناء لها لبعد منالها

وعدت على سقراط سؤرة كأسها ... فَهُرِيق ما فى الدن من جريالها

وسرت إلى فاراب منها نفحة ... قدسية جاءت بنخبة آلها

ليصوغ من ألحانه فى حانها ... ما سوغ القسيس من أرمالها

وتغلغلت فى سهر ورد فأسهرت ... عينًا يؤرقها طروق خيالها

فخبا شهاب الدين لما أشرفت ... وخوى فلم يثبت لنور جلالها

ما جن مثل جنونه أحد ولا ... سمحت يد بيضا بمثل نوالها

وبدت على الشوذى منها نشوة ... ما لاح منها غير لمعة آلها

بطلت حقيقته وحالت حاله ... فيما يعبر عن حقيقة حالها

هذى صبابتهم ترق صبابةً ... قيروق شاربها صفاء زلالها

اعلم أبا الـفـضل بن يحـــيى أننى ... من بعـدها أحـرى عـلى آمـالهـا
فـإذا رأيت مـدلهـا مـثلى فـخـذ ... فى عـــذله إن كنت من عـذالـهـا
لا تعـــجبن لما ترى من شـــأنهـــا ... فى حلهـا إن كـــان أو ترحـالهـا
فـصلاحـها بفـسـادها ونعيـمهـا ... بعـــذابهـا ورشـــادها بضـلالـهـا
ومن العـــجـائب أن اقـيـم ببلدةٍ ... يومًـا وأسلم مـن أذى جـهـالهـا
شـغلوا بدنيـاهـم أمـا شـغلتـهم ... عنى فكم ضـيـعت من اشـغالهـا
حجـبوا بجهلـهم فإن لاحت لهم ... شمس الهـدى عبثوا بضـوء ذبالها
وإن انتـسـبت فـإننى من دوحـة ... يتـــفـيـــأ الإنسـان برد ظلالـهـا
من حميـر من ذى رعين من ذوى ... حـجـر من العظمـاء من أقيـالهـا
وإذا رجـعت لطينتى مـعنى فـمـا ... سلســـاله بأرق من صـلصـالهـــا
لله درك أى نجل كـــــريـمـــــةٍ ... ولدت فـاس منك بعـد حـيـالهـا
ولأنت لا عـدمتك والـد فخـرها ... وسـمـاك سؤددها وبـدر كمـالهـا
اغلظ على مـن عـاث من أنذالهـا ... واخـــشع لمن تلقـــاه من أبدالهـــا
والبس بما أوليـــتـهـا من نعـــمـةٍ ... حلل الـثناء وجـــر من أذيـالهـــا
خـذها أبا الفضل بن يحـيى تحفـة ... جـاءتك لـم ينسج على منـوالهـا
مـا جاء فى مـضمـارها شعـر ولا ... سـمعت قـريحـة شـاعرٍ بمثـالهـا
وأنل أبا البـركـات مـن بركـاتهـا ... وادفع مـحـال شكـوكـه من آلهـا

قال السلطان أبو عنان رحمه الله[1]: أخبرنا شيخنا الإمام العالم العلامة، وحيد زمانه، أبو عبد الله محمّد بن إبراهيم الآبلى رحمه الله قال:

لما توجه الشيخ الصالح الشهير أبو إسحاق التنسى من تلمسان إلى بلاد المشرق، اجتمع هناك بقاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد، فكان من قوله له: كيف حال الشيخ العالم أبى عبد الله بن خميس؟ وجعل يحليه بأحسن الأوصاف، ويطنب فى ذكر فضله، فبقى الشيخ أبو إسحاق متعجبًا، وقال: من يكون هذا الذى حليتموه بهذا الحلى ولا أعرفه ببلدى؟ فقال له هو القائل:

«عجبًا لها أيذوق طعم وصالها»

قال: فقلت له: إنَّ هذا الرجل ليس هو عندنا بهذه الحالة التى وصفتم، إنّما هو عندنا شاعر فقط. فقال له: إنكم لم تنصفوه، وإنه لحقيق بما وصفناه.

قال السلطان أبو عنان: وأخبرنا شيخنا أبو عبد الله المذكور أنَّ قاضى القضاة ابن دقيق العيد كان قد جعل القصيدة المذكورة بخزانة كانت له، تعلو موضع جلوسه للمطالعة، وكان يخرجها من تلك الخزانة ويكثر تأمله والنظر فيها.

ثم قال السلطان أبو عنان[2]: قال لنا شيخنا أبو عبد الله الآبلى المذكور:

وقد تعرفت أنّه لما وصلت هذه القصيدة إلى قاضى القضاة تقى الدين المذكور لم يقرأها حتى قام إجلالا لها. انتهى.

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦٩.

(٢) نفح الطيب ج٥ ص ٣٧٠.

وقد وصل ابن خميس رحمه الله هذه القصيدة إلى قاضى القضاة بنثر لم أثبته هنا لطوله، ولما قيل إنَّ هذا الرجل معرى النزعة، أى نظمه أحسن من نثره؛ وقد أوردها ابن الخطيب فى الإحاطة وأوردها السلطان أبو عنان فى مروياته.

وكان ابن خميس بعد مفارقته بلده تلمسان، سقى الله أرجاءها أنواء نيسان، كثيرا ما يتشوق لمشاهدها، ويتأوه عند تذكره لمعاهدها، وهى شيمة الأحرار فى حنينهم إلى أوطانهم وللدهر إحلاء وإمرار.

فمن ذلك قوله رحمه الله تعالى[1]:

تلمسان لو أنَّ الزمان بها يسخو ... منى النفس لا دار السلام ولا الكرخُ

وداري بها الأولى التى حيل دونها ... مثار الأسى لو أمكن الحِنَقَ اللَّبْخُ[2]

وعهدى بها والعمر فى عنفوانه ... وماء شبابى لا أجين ولا مطخُ[3]

قرارة تهيام ومغنى صبابةٍ ... ومعهد أنس لا يلذ به لطخُ

إذ الدهر مثنى العنان منهنه ... ولا ردع يثنى من عنان ولا ردخُ[4]

ليالى لا أصغى إلى عذل عاذل ... كأن وقوع العذل فى أذنى صمخُ

---

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٣٧٠ وبهامشه: «وهى قصيدة مليئة بالغريب تعمدا ولذا احتاجت ألفاظها إلى شرح؛ فاضطررنا إلى الخروج عن خطتنا فى الإقلال من الشروح اللفظية وهى نفس الخطة التى اتبعناها.

(٢) اللبخ: الاحتيال.

(٣) المطخ: ما يبقى فى الحوض والغدير من الماء الذى فيه الدعاميس، لا يقدر على شربه.

(٤) الردخ: الردع.

مـــعـــاهد أنس عطلـت فكأنهـــا ظواهر ألفـــاظٍ تعـــمـدهـا النسخُ

وأربع أُلاَّف عـــفـــا بعض آيهـــا كما كـان يعرو بعض ألواحنا اللطخُ

فـمن يك سكرانًا من الوجد مـرةً فـــإنى منـه طول دهرى لملـتخ[1]

ومن يقـــدح زندًا لموقـــد جـذوة فـزند اشتـياقى لا عـفار ولا مـرخ

أأنسى وقوفى لاهـيا فى عراصـها ولا شـاغـل إلاّ التـودع والســبخ

وإلاّ اختـيالى ماشـيا فى سمـاطها رخـيا كـمـا يمـشى بطرته الرخ[2]

وإلاّ فـعدوى مـثل ما ينفـر الطلا وليدا وحجلى مثل ما ينهض الفرخ

كـأنى فـيـهـا أردشـيـر بن بابك ولا ملك لى إلاّ الشـبيـبة والشـرخ

وإخـوان صـدق من لداتى كـأنهم جـآذر رمل لا عجـاف ولا بزخ[3]

وعـاة لما يلقى إلـيـهم من الهـدى وعن كل فـحشـاء ومنكر صلخ[4]

هم القوم كل القيوم سيان فى العلا شبابهم الفرعـان والشيخة السلخ[5]

مـضوا ومـضى ذاك الزمان وأنسـه ومـر الصبـا والمال والأهل والبـذخ

كأنهم لم يكن يوما لأقـلامهم بها صرير ولم يسمع لأكعابهم جبخ[6]

ولم يك فى أرواحـهـا مـن ثنائهم شميم ولا فى القضب من لينهم ملخ[7]

---

(١) الملتخ: الذى اشتد سكره.

(٢) الرخ: حجر حر الحركة من أحجار الشطرنج.

(٣) الأبزخ: المقعنس، أى الذى برز صدره ودخل ظهره.

(٤) الصلخ: جمع أصلخ وهو التام الصمم.

(٥) الفرعان: الطويل الشعر، والسلخ: الصلع.

(٦) الجبخ: قعقعة الكعاب فى المسير.

(٧) الملخ: الطراوة والتثنى.

ولا فى محيا الشمس من هديهم سنى ولا فى جبين البدر من طيهم ضمخ
سعيتم بنى عمور فى شت شملنا فما تَجْرُكم ربح ولا عيشنا ربخ[1]
دعيتم إلى ما يرتجى من صلاحكم فردكم عنه التعجرف والجمخ[2]
تعاليتم عجبا فطم عليكم عباب له فى رأس عليائكم جلخ

وهى طويلة جدا، ألم فيها بمدح سبتة وملوكها بنى العزفى، فقال[3]:

تركت لمينا سبتة كل نُجْعَةٍ كما تركت للعز أهضابها الشمخ
وآليت أَلاَّ أرتوى غير مائها ولو حل لى فى غيره المن والمذخ[4]
وألا أحط الدهر أَلاَّ بعقرها ولو بوأتنى دار إمرتها بلخ
فكم نقعت من غلة تلكم الأضا وكم أبرأت من علة تلكم اللبخ[5]
وحسبى منها عدلها واعتدالها وأبحرها العظمى وأريافها النفخ
وأملاكها الصيد المقاولة الألى لعزهم تعنو الطراخمة البلخ[6]
كواكب هدى فى سماء رياسة تضئ فما يدجوا ظلال ولا يطخو[7]
ثواقب أنوارها ترى كل غامض إذا الناس فى طخياء غبها التخوا[8]

---

(١) الربخ: الوقوع فى الشدة.
(٢) الجمخ: العجرفة.
(٣) نفح الطيب ج٥ ص ٣٧٣.
(٤) المذخ: نوع من العسل.
(٥) الأضاة: الغدير أو البحيرة، واللبخ نوع من الشجر ينفع ورقه فى التداوى.
(٦) الطراخمة: المتكبرون. البلخ: المتعجرفون.
(٧) طخا الضلال: اشتدت ظلمته.
(٨) الطخياء: الظلمة الشديدة. التخ: حَارَ واضطرب.

وروضـــات آداب إذا مـــا تأرجت تضاءل فـى أفياء أفنانهـا الرمخ[١]

مـجـامـر ند فـى حـدائق نرجس تنم ولا لـفح يصـــيب ولا دخ[٢]

وأبحـــر علم لا حـــيـــاض رواية فيكبر منها النضح أو يعظم النضخ

بنو العـزفيين الألى مـن صدورهم وأيديهم تملا القراطيس والطرخ[٣]

إذا مـا الفـتى منهم تصـدى لغـاية تأخرت من ينحو وأقصر من ينخو

رياسـة أخـــيـار وملك أفـــاضل كرام لهم فى كل صـالحة رضخ[٤]

إذا مـــا بدا منا جـفـــاء تعطفـــوا علينـا وإن حلت بنا شـــدة رخـوا

نزورهم حُـــذَّا نحـــافـــا فننـثنى وأجـمـــالنا دلح وأبـداننا دلخ[٥]

يربـوننـا بالعـلم والحلـم والنـهى فمـا خرجنا بز ولا حـدنا برخ[٦]

وما الزهد فى أملاك لخم ولا التقى ببـدع ولـلدنيـا لزوق بمـن يرخـو

وإلاّ فـــفى رب الخـــورنق غنيـــة فمـا يومه سر ولا صيـته رضخ[٧]

تطلـع يومـا والـسـديـر أمـامـــه وقد نال العجب ما شاء والجفخ[٨]

---

(١) الرمخ: الشجر المجتمع.

(٢) الدخ: لغة فى الدخان.

(٣) الطرخ: الأحواض، والمفرد طرخة.

(٤) الرضخ: النوال.

(٥) الأحذ: الضامر، الدلوح: المتثاقل لثقل حمله، والدلوخ: السمين.

(٦) البز: الابتزاز، والبرخ: القهر.

(٧) الرضخ: خبر تسمعه ولا تستيقنه.

(٨) الجفخ: التكبر.

وعن له من شيعة الحق قائم ... بحجة صدق لا عبام ولا وشخ[1]

فأصبح يجتاب المسوح زهادة ... وقد كان يؤذى بطن أخمصه النخ

وفى واحد الدنيا أبى حاتم لنا ... دواء ولكن ما لأدوائنا نتخ[2]

تخلى عن الدنيا تخلى عارف ... يرى أنها فى ثوب نخوته لتخ[3]

وأعرض عنها مستهينا بقدرها ... فلم يثنه منها اجتذاب ولا مصخ[4]

فكان له من قلبها الحب والهوى ... وكان لها من كفه الطرح والطخ[5]

وما الغرض عنها وهى فى طلابه ... كمن فى يديه من معاناتها نبخ[6]

ولا مدرك ما شاء من شهواتها ... كمن حظه منها التمجع والنجخ[7]

ولكننا نعمى مرارًا عن الهدى ... ونصلج حتى ما لآذاننا صمخ[8]

وما لامرئ عما قضى الله مزحل ... ولا لقضاء الله نقض ولا نسخ

أبا طالب لم تبق شيمة سؤدد ... يساد بها إلاّ وأنت لها سنخ

لسوغت أبناء الزمان أياديا ... لدرتها فى كل سامعة شخ[9]

---

(١) العبام: القدم العَيِىّ، الوشخ: الضعيف.

(٢) النتخ: الانتزاع.

(٣) اللتخ: كاللطخ أى البقعة فى الثوب.

(٤) المصخ: جذب الشىء وانتزاعه.

(٥) الطخ: قذف الشىء بعيدًا.

(٦) النبخ: قروح فى اليد.

(٧) التمجع: الاكتفاء بقليل من لبن أو تمر، والنجخ: الزهد فيها.

(٨) نصلج: نصاب بالصمم، والصمخ: صماخ الأذن.

(٩) الشخ: صوت الشخب.

وأجـريتـهـا فيـهم عـوائد سـؤدد فـمـا لهم كـسب سـواها ولا نخ

غذتهم غـواديها فهى فى عـروقهم دمـاء وفى أعـمـاق أعظمـهم مخ

وعمـتهم حزنا وسـهلا فأصبـحوا ومرعـاهم وزخ ومرعـيهم ولخ[1]

بنى العـزفـيـين ابلُغـوا مـا أردتم فما دون ما تبلغون وحل ولا زلخ[2]

ولا تقـعدوا عـمن أراد سجـالكم فما غربكم جف ولا غرفكم وضخ[3]

وخلـوا وراء كل طالـب غـــاية وتيهوا على مـن رام شأوكم وانخوا[4]

ولا تذروا الجـــوزاء تـعلو علـيكم ففى رأسهـا من وطء أسلافكم شدخ

لأفـواه أعـدائى وأعـين حـسـدى إذا جليت خائيـتى الغص والفضخ

دعـوها تهادى فى مـلاءة حسنهـا ففى نفسها من مدح أملاكها مدخ[5]

يمـــانيـة زارت يمـــانى فـــانثنت وقد جد فيها الزهو واستحكم الزمخ[6]

ومن مطلع قـصيدة لابن خـميس رحمـه الله فى مدح بلدة تلمـسان - حاطها الله تعالى - قوله:

تلمـسان جادتك الغـوادى الروائح وأرست بواديهـا الرياخ اللواقح[7]

---

(١) الوزخ: نوع من الشجر، والولخ: الطويل من العشب.

(٢) الزلخ: الزلق.

(٣) الغرب: الدلو، الجف الذى تشنن: الغرف: انتشال الماء، وضخ: قليل.

(٤) انخوا: من النخوة، وهى الافتخار والتعظم.

(٥) المدخ: العظمة.

(٦) الزمخ: الكبر وشموخ الأنف.

(٧) نفح الطيب ج٧ ص ١٣١.

وسح على ساحات باب جيادها ملث يصافى تربها ويصافح
يطير فؤادى كلما لاح بارق ويزداد شوقى كلما مر سانح

ولم يعلق بحفظى من هذه القصيدة سوى ما ذكرت. وكنت تركتها بتلمسان ولم أرها الآن بفاس حماها الله.

و«باب جياد» الذى أشار إليه هو أحد أبواب تلمسان المحروسة، وفيها يقول الفقيه العلامة الناظم الناثر أبو عبد الله محمّد بن يوسف الثغرى من قصيدة رفعها للسلطان أبى حَمّو، رحم الله الجميع:

أيها الحافظون عهد الوداد جددوا أنسنا بباب الجياد[1]
وصلوها أصائلا بليال كلآل نظمن فى الأجياد
فى رياض منضدات المجانى بين تلك الربا وتلك الوهاد
وبروج مشيدات المبانى باديات السنى كمشهب بوادى
رق فيها النسيم مثل نسيبى وصفا النهر مثل صفو ودادى
وزها الزهر والغصون تثنت وتغنت عليه ورق شوادى
وانبرى كل جدول كحسام عارى الغمد سندسى النجاد
وظلال الغصون تكتب فيه أحرفا سطرت بغير مداد
تذكر الوشم فى معاصم خود قضب فوقه ذوات امتداد
وكئوس المنى تدار علينا بجنى عفة ونقل اعتقاد

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٢١.

واصفرار الأصيل فيها مدام ... وصفير الطيور نغمة شادى

كان غدونا بها لأنسٍ روحنا ... جادها رائح من المزن غادى

ولكم روحة على الدوح كادت ... أن تربح الصبا لنا وهو غادى

رقت الشمس فى عشاياه حتى ... أحدثت منه رقة فى الجماد

جددت بالغروب شجو غريب ... هاجه الشوق بعد طول البعاد

يا حيا المزن حيها من بلاد ... غرس الحب غرسها فى فؤادى

وتعاهد معاهد الأنس منها ... غرس الصبا بصوب العهاد

حيث مغنى الهوى وملهى الغوانى ... ومراد المنى ونيل المراد

ومقر العلا ومرقى الأمانى ... ومَجَرّ القنى ومجرى الجياد

كل حسن على تلمسان وقف ... وخصوصا على ربا العباد

ضحك النور فى رباها وأربى ... كهف ضَحَّاكها على كل نادى

وسما تاجها على كل تاج ... وسطا على كل وادى

يدعى غيرها الجمال فيقضى ... حسنها أنَّ تلك دعوى زياد

وبشعرى فهمت معنى علاها ... من حلاها فهمت فى كل وادى

حضرة زانها الخليفة موسى ... زينة الحلى عاطل الأجياد

وحبها بكل بذل وعدل ... وحماها من كل باغ وعادى

ملك جاوز المدى فى المعالى ... فالنهايات عنده كالمبادى

معقل للهدى منيع النواحى ... مظهر للعلا رفيع العماد

قـاتل المحل والأعـادى جـميـعـا بغـــرار الظبـــا وغـــر الأيادى
كلمـــا ضنت الســحـــائب أغنت راحـتـاه عن السـحـاب الغـوادى
كم هبـــات لـه وكم صـــدقـــات عـــائدات علـى العـــفـــاة بوادى
فـــأيادى خليـــفـــة الله مـــوسى أبحـــــرت عـــذبة علـى الوراد
ركب الجـــود فى بســـيط يـديه فـتـــــلافى به تلاف العـــبـــاد
جل بـاريه ملـجـــأ لـلبـــــرايا كـالحـيـــا ضـامنا حـيـــاة البـلاد
جل مـن خـــصـــــه بتلك المـزايا بـــاهـرات مـــن طـارف وتـــلاد
شـــيم حـلوة الجنى وســـــجـــايا يشـيـد المجـد أنـهـا كـالشـهـاد
يا إمـام الهـدى وشـمس المعـالى وغـــمـــــام الندى وبـدر النوادى
لك بـين الملـوك ســـــر خـــفى ليس مـــعناه لـلعـقـــول ببـــادى
فكأن البـــلاد كـــفك مـــهـــمـــا كـان فـيـهـا من ينتـمى للعـبـاد
قـــبض كـــفك البنـان عليـــه فـانثـنى بالإذعـان حلف انقـيـاد
وبكم تصلـح البـلاد جـمـيـعـا إن آراءكم صـــــلاح الـبـــــلاد
لـم نزل دائـمـــــا تحن إلـيكـم كـــحـنين الســـقـيم للـعـــواد
لو أعـــــينـت بمنطـق شكرتـكم مـــثل شكر العـــفـــاة للأجـــواد
قـد أطاعـتكم البـلاد جـمـيـعـا طاعـــة أرغـمت أنوف الأعـــادى
فـأريحـوا الجـيـاد أتعـبـتـمـوها وأقـروا السـيـــوف فى الأغـمـاد
واهنئـــوا خـالدين فى عـــز ملك قـــائم السـعـــد دائم الإسـعـــاد

وإليكم من مذهبات القوافى حكما سهلت ليان المقاد
كل بيت من النظام مشيد عطر الأفق بالثناء المشاد
ذو ابتسام كزهر روض مجود وانتظام كسلك در مجاد

ومن قول الثغرى المذكور فى تلمسان وسلطانه أيضًا[1]:

تاهت تلمسان بحسن شبابها وبدا طراز الحسن فى جلبابها
فالبشر يبدو من حباب ثغورها متبسما أو من ثغور حبابها
قد قابلت زهر النجوم بزهرها وبروجها ببروجها وقبابها
حسنت بحسن مليكها المولى أبى حمو الذى يحمى حمى أربابها
ملك شمائله كزهر رياضها ونداه فاض بها كفيض عبابها
أعلى الملوك الصيد من أعلامها وأجلها من صفوة ولبابها
غارت بغرة وجهه شمس الضحى وتنقبت خجلا بثوب ضبابها
والبدر حين بدت أشعتها له حسنا تضاءل نوره وخبا بها
لله حضرته التى قد شرفت خدامها فسمو بخدمة بابها
فاللثم فى يمناه يبلغها المنى والمدح فى علياه من أسبابها

وتذكرت بقوله رحمه الله تعالى:

أيّها الحافظون عهد الوداد جددوا أنسنا بباب الجياد

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٢٥.

قصيدة أبى المكارم مِنديل بن آجروم فى ذكر فاس المحروسة وباب الفتوح منها وموضع من متنزهاتها ولا شك أنَّ كل واحدة من هاتين القصيدتين تنظر إلى الأخرى وناظماها متعاصران فالله أعلم أيهما أخذ من الآخر على أنَّ الرويّ مختلف وقد يقال إنَّ ذلك من باب توارد الخواطر.

ونص قصيدة ابن آجروم المذكور(١):

أيها العارفون قدر الصبوح ... جددوا أنسنا بباب الفتوح
جددوا ثم أنسنا ثم جدوا ... نسرح الطرف فى مكان فسيح
حيث شابت مفارق اللوز نورا ... وتساقطن كاللجين الصريح
وبدا منه كل ما احمر يحكى ... شفقا مزقته أيدى الريح
وكأن الذى تساقط منه ... نقط لحن من دم مسفوحِ
وإذا ما وصلتم للمصلى ... فلتحلوا بموضع التسبيح
وبطيفورها فطوفا لكيما ... تبصروا من ذراه كل سطوح
ولتقيموا هناك لمحة طرفٍ ... لتردوا بها دماء الروحِ
ثم حطوا رحالكم فوق نهر ... كَلَّ فى وصفه لسان المديح
فوق حافاته حدائق خضر ... ليس عنها لعاشق من نزوح
وكأن الطيور فيها قيان ... هتفت بين أعجمٍ وفصيحِ
وهى تدعوكم إلى قبة الجو ... ز هلموا إلى مكان مليحِ

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٢٣.

فيه ما تشتهون من كل نور ... مغلق فى الكمام أو مفتوح
وغصونٍ تهيج رقصًا متى ما ... سمعت صوت كل طير صدوحِ
فأجيبوا دعاءها أيها الشَّرْ ... بُ وخلوا مقال كل نصيح
واجنحوا للمجون فهو جدير ... وخليق من مثلكم بالجنوح
واخلعوا ثم للتصابى عذارا ... إن خلع العذار غير قبيح
وإذا شئتم مكانًا سواه ... هو أجلى من ذلكم فى الوضوح
فاجمعوا أمركم لنحو أَتِىٍّ ... جاء كالصل من قفار فيحِ
عطرت جانبيه كف الغوادى ... بشذا عرف زهرها الممنوح
قل لمهيار إن شممت شذاها ... قول مستخير أخى تجريحِ
أين هذا الشذا الذكى من القيـ ... ـصوم والرند والغضا والشيح
حبذا ذلك المهاد مهادًا ... بين دان من الربا ونزوحِ
ثم من ذلك المهاد أفيضوا ... نحو هضبٍ من الهموم مريحِ
فيه للحسن دوحة وروايا[1] ... وانشراح لذى فؤادٍ قريح
وحجار تدعى حجار طبول ... غير أنَّ التطبيل غير صحيحِ
تنشر الشمس ثم كل غدو ... زعفرانًا مبللا بنضوح
وسبو من هناك يسبى عقولا ... ويجلى لحاظ طرفٍ طموحِ
وعيون بها تقر عيون ... وكلام يأسو كلوم الجريحِ
فرشت فوقها طنافس زهر ... ليس كالعهن نسجها والمسوحِ

(١) تحرف فى سائر الأصول إلى: «زوايا» وصوابه من نفح الطيب ج٧ ص ١٢٥ و«روايا» جمع راوية. والراوية مزادة الماء أو الدابة التى تحمله. ولعل المراد بها: الناعورة التى يرفع بها الماء.

كلمـــا مـــر فـــوقـــهن طـليح عـاد من حـــسنهن غـيـــر طليحِ
فـانهـضـوا أيّهـا المحبـون مـثلى لنـرى ذات حـــسنـهـــا المملوح
هـكذا يـربح الـزمـــــــان وإلاّ كل عـــيش ســـواه غـــيـــر ربيح

رجع إلى نظم ابن خميس رحمه الله

ومن بديع نظمه قصيدة مدح الوزير ابن الحكيم.

قال ابن الخطيب: وهى مـن مشاهيـر أمداحه فـيه، وكتب بهـا إليه من ألمرية، وألم فيها بذكر بلده تلمسان، وما حل بها من البلاء والحصار فى ذلك التاريخ من قبل السلطان أبى يعقـوب يوسف ابن السلطان المجاهد الكبير أبى يوسف يعقوب بن عـبد الحق، وقد رحل الشيح الولى أبو زيد عـبد الرحمن الهزميرى نفعنا الله ببركات من بلده أغمات للشفاعة عند السلطان أبى يعقوب فى أهل تلمسان المحصورين(١)، فلم يقبل شفاعتهـم، فقال الشيخ سيدى أبو زيد كلاما مـعناه: إنَّ سَعَادَةَ يقضى هذا، ورجع الشـيخ إلى فاس، فاتفق أن هذا العبد كان مع السلطان فى الحمام، وكان له عليه حقد، فانتهز فيه الفرصة ووجـأه بخنجر، فـكان فى ذلك حتـفـه، فنفس الله عن أهل تلمـسان بعـد حـصارها نحـو العـشر سنين. ولّما وصل الخـبـر إلى سيـدى أبى زيد بموت السلطان قال: وعبد الرحمن يَمُّوت، يعـنى نفسَه؛ و«يَمُّوت»: بتشديد الميم، على لغة البربر؛ فتوفى رحـمه الله ودفن بمسجد الصفارين(٢)، وقبره مشهور مقصود الإجابة، نفعنا الله به، وقد زرته مرارا لا أحصيها، ودعوت الله عنده بما أرجو قبوله.

وقد أشـار أبو عبد الله بن خمـيس فى هذه القصيدة إلى ذلك الحـصار

(١) العبارة فى سائر الأصول فيها سقط وتحريف، وقد اعتمدنا فى تكملتها وتصويبها على ما ورد فى نيل الابتهاج: ج١ ص ٢٦٣ وما اقتضاه السياق.

(٢) فى سائر الأصول: «الصابرين» والمثبت من نيل الابتهاج.